زبدة الإتقان في علوم القرآن

تأليف
محمد بن علوي بن عباس المالكي

دار الإنسان
للتأليف والترجمة والنشر

هدية من المغفور له عبدرب السيد محمد لمكتبة
الحرم النبوى بالمدينة المنورة
١٤١٢هـ

زبدة الإتقان فى علوم القرآن

الطبعـة الأولى

رجب المبارك ١٤٠١ هـ

الموافق مايو ١٩٨١ م

دار الانسان – ١٠٩ ش التحرير – ميدان الدقي

القاهرة – تليفون ٩٨١٠٣٣ – ٩٠٢٧٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـــد :

فهـذه فصول فى علوم القرآن لخصناها من كتاب الإمام السيوطى رحمه الله تعالى الذى سماه بالاتقان فى علوم القرآن مع بعض تحقيقات وزيادات لابد منها . أردنا بذلك تبسيط الكتـاب وتقريبه ليصير مقرراً دراسياً على طلاب العلم الشريف الذين يدرسون عندنا بمكة المكرمة نفع الله به كما نفع بأصله وجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم آمين .

وكتبه

محمد بن علوى المالكى الحسينى

مكة المكرمة: فى ٨ ربيع آخر ١٤٠١

أول ما نزل

اختلف فى أول ما نزل من القرآن على أقوال أحدها وهو الصحيح إقرأ باسم ربك وهذا ثابت فى الصحيحين وغيرهما فعن عائشة رضى عنها ؛ أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم . وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه [وهو التعبد] الليالى ذوات العدد . قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق فى غار حراء فجاءه الملك فقال : إقرأ . قلت . ما أنا بقارىء فاخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : إقرأ قلت : ما أنا بقارىء فأخذنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : إقرأ . قلت : ما إنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : [إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم] وفى بعض الروايات حتى بلغ ما لم يعلم الخ الحديث وهو طويل .

القول الثانى — يا أيها المدثر — فقد روى الشيخان عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن قال سألت جابر بن عبدالله أى القرآن أنزل قبل قال«يا أيها المدثر»قلت أو إقرأ باسم ربك ؟ قال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله إنى جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ثم نظرت إلى السماء فإذا هو — يعنى جبريل — فأخذتنى رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى فأنزل الله (يا أيها المدثر قم فأنذر) .

لكن العلماء أجابوا عن هذا التعارض بأجوبة أشهرها أن المراد

بالأولية فى حديث جابر أولية مخصوصة وهى أولية الأمر بالأنذار أى أول ما نزل للرسالة [يا أيها المدثر] وأول ما نزل للنبوة (إقرأ باسم ربك) وهذا جواب جيّد سديد .

٢ ـ وأجاب بعضهم بأن مراد جابر أن سورة المدثر أول سورة نزلت كاملة وهذا لا يعارض أن ((اقرأ أول ما نزل) مطلقاً لأنها لم تنزل كلها بل نزل منها صدرها ويؤيد هـذا أنه جاء فى رواية أخرى عن جابر نفسه فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا أمشى إذْ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء على كرسى بين السماء والأرض فرجعت فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله [يا أيها المدثر] فقوله فى الحديث ـ الملك الذى جاءنى بحراء يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها [إقرأ باسم ربك] قلت وهذا أصح ما جاء فى هذا الباب من ناحية الدليل .

٣ ـ وأجاب بعضهم بأن جابراً استخرج هذا باجتهاده وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روته عائشة . وهذا من أحسن الأجوبة.

القول الثالث : أن أول ما نزل الفاتحة وثبت ذلك بحديث رواه البيهقى أجاب عنه العلماء بأنه حديث مرسل أو يحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه إقرأ .

القول : الرابع أن أول ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم

وأجاب عنه السيوطى بأن هذا لا يعد قولا برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة ، نزول البسملة معها .

وهناك أقوال أخرى فى أول ما نزل وكل ذلك لا يثبت من ناحية السند وإن صح فيتأول بأن معنى أول ما نزل . على حذف (من) أى من أول ما نزل

أوائل مخصوصة

١ ـ أول ما نزل بمكة إقرأ باسم ربك وأول ما نزل بالمدينة سورة البقرة وقيل ويل للمطففين.

٢ ـ وآخر ما نزل بمكة سورة المؤمنون وآخر ما نزل بالمدينة سورة براءة.

٣ ـ أول ما نزل فى القتال [أذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظلموا] الحج: ٣٩.

٤ ـ أول ما نزل فى شأن الخمر (يسألونك عن الخمر والميسر) البقرة: ٢١٩

٥ ـ أول سورة أنزلت فيها سجدة النجم ـ رواه البخارى ـ

٦ ـ أول ما نزل فى الأطعمة بمكة [قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً] وبالمدينة [إنما حرم عليكم الميتة].

آخر ما نزل

اختلف العلماء فى ذلك على أقوال أشهرها :

١ ـ أن آخر ما نزل قوله [يستفتونك قل الله يفتيكم] ـ رواه الشيخان ـ

٢ ـ وقال ابن عباس آخر آية نزلت آية الربا رواه البخارى وهى قوله [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا].

٣ ـ وقال أيضاً آخر آية نزلت [واتقوا يوماً ترجعون فيه].

٤ ـ وقال سعيد بن المسيب آخر آية نزلت آية الدين قال السيوطى وهو مرسل صحيح الإسناد.

ويمكن الجمع بين القول الثانى وما بعده بأنها نزلت كلها دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف فيصدق على كل منها أنها آخر ما نزل وحينئذ يتأول القول الأول بأنه آخر ما نزل فى شأن الفرائض والأحكام

لكن يشكل على هذا . ما ورد أن قوله تعالى [اليوم أكملت لكم دينكم] نزلت بعرفة عام حجة الوداع ووجه الأشكال هو أن ظاهرها اكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها مع أنه ورد فى آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك ولذلك فقد تأول العلماء هذه الآية . بأن اكمال الدين المراد به فى الآية إقرارهم بالبلد الحرام . وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون ويؤيد هذا قول ابن عباس كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً فلما نزلت براءة نفى المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين فكان ذلك من تمام النعمة [وأتممت عليكم نعمتى] . .

أقوال أخرى فى آخر ما نزل والجواب عنها :

وقد روى السيوطى عن كثير من العلماء أقوالاً أخرى فى آخر ما نزل فمنها أن آخر ما نزل سورة [إذا جاء نصر الله والفتح] ومنها أنه سورة المائدة ومنها أنه آية [لقد جاءكم رسول من أنفسكم] ومنها أنه سورة الفتح ومنها أنه (سورة براءة) قال البيهقى يجمع بين هذه الاختلافات -إن صحت - بأن كل واحد أجاب بما عنده وقال القاضى أبو بكر فى الانتصار هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وكل ما قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كل

واحد منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل و غيره سمع منه بعد ذلك .

معرفة سبب النزول

أعلم أن نزول القرآن على قسمين : قسم نزل إبتداء وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال .

وقد تتبع العلماء القسم الثانى وصنفوا فيه كتباً مخصوصة بينوا الآيات التى نزلت بسبب وبينوا ذلك السبب واجتهد وافيه اجتهاداً بالغاً وأشهر مؤلف فى هذا الموضوع لباب النُّقول فى أسباب النزول للحافظ السيوطى .

وفى هذا العمل فوائد جليلة منها :

معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ومنها أنه طريق قوى فى فهم معانى القرآن لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .

هذا وإليك هاتين القصتين لتعرف بهما أنه لولا معرفة سبب النزول لزلت أقدام كثير فى فهم المعنى وإدراك المقصود .

فقد قرأ مروان بن الحكم قوله تعالى [ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا] الآية(١) وقال : لئن كان كل إمرىء فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنُعذِّبن أجمعون . وهذا الذى فهمه هو صحيح بالنسبة لظاهر الآية . لكن بيَّن له ابن عباس الحقيقة وهى أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء

---

(١) سورة آل عمران ١٨٨ .

فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه . (أخرجه الشيخان).

وحكى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ويحتجان بقوله تعالى :

[ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا]

(المائدة: ٩٣)

ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك وهو أن ناساً قالوا لما حُرمت الخمر ؟ كيف بمن قتلوا فى سبيل الله ومانوا وكانوا يشربون الخمر وهى رجس فنزلت [أخرجه أحمد والنسائى وغيرهما] ولولا معرفة سبب نزول قوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله] لقال قائل أن ظاهرها فيد أن المصلى لا يجب عليه استقبال القبلة لا سفرا ولا حضرا . وهو خلاف الأجماع لكن بمعرفة سبب نزولها يعلم أنها فى نافلة المسفر أو فيمن صلّى اجتهاداً ثم بان له الخطأ على اختلاف الروايات فى ذلك.

هل للسبب تأثير فى تحديد الحكم :

مما يتصل بهذا المبحث مسألة مهمة جرى الخلاف فيها بين علماء الأُصول . وهى أننا إذا عرفنا سبب نزول آية متضمنة لحكم شرعى فهل يكون ذلك الحكم خاص بذلك السبب الذى نزلت فيه الآية أم يكون عاماً فيشمل غيره ويعبرون عنها بقولهم هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب والجواب أن المشهور الأصح هو أن العبرة بعموم اللفظ فالحكم يتناول غير السبب الذى نزل من أجله.وقد نزلت آيات فى أسباب واتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها كنزول آية الظهار فى سلمة بن صخر . وآية اللعان فى شأن هلال . بن أمية وحد القذف فى رماة

عائشة ثم تعدى إلى غيرهم ومن لا يعتبر عموم اللفظ . يقول خرجت هذه الآيات ونحوها لدليل آخر .

قال الحافظ السيوطى ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ . احتجاج الصحابة رضى الله عنهم فى وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائعاً ذائعاً بينهم .

وهذا بالنسبة للآية التى يفيد لفظها العموم أما الآية التى نزلت فى معين ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعاً كقوله تعالى [وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى] فانها نزلت فى أبى بكر الصديق بالإجماع . .

ووهم من ظن أن الآية عامة فى كل من عمل عمله إجراء له على القاعدة . وهذا غلط فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام انما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع زاد قوم أو مفرد بشرط ألاَّ يكون هناك عهد واللام فى الأتقى ليست موصولة لأن أل لا توصل بأفعل التفضيل اجماعاً والأتقى ليس جمعاً بل هو مفرد والعهد موجود خصوصاً مع ما يفيده صيغة [افعل] من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضى الله عنه .

فوائد تتعلق بأسباب النـــزول

مصادر أسباب النزول :

لا يحل القول فى أسباب النزول إلاَّ بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها قال محمد بن سيرين سأَلت عبيدة عن آية من القرآن فقال اتق الله وقل سداداً . ذهب الذين يعلمون فيم أَنزل الله القرآن . والصحابة رضى الله عنهم هم المرجع الأَول والآخر لهذا النقل . وهم رضوان الله عليهم يعرفون ذلك بقرائن تحتفّ بالقضايا قلت ويدركون ذلك أَيضاً بملازمة النبى صلى الله عليه وسلم ومعرفه أَحواله وتتبع ماينزل عليه من الآيات الكريمات وشهودهم ذلك بأَنفسهم .

ما معنى قول الصحابة هذه الآية نزلت فى كذا ؟ يجرى مجرى المسند وهل يفيد سبب نزولها ؟

اختلف العلماء فى قول الصحابى . نزلت هذه الآية فى كذا .

هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أَنزلت لأَجله أَو يجرى مجرى التفسير الذى ليس بمسند ؟ فالبخارى يدخله فى المسند وغيره لا يدخله فيه وأَكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أَحمد وغيره بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فانهم كلهم يدحلون مثل هذا فى المسند وعن المسأَلة الثانية وهى [هل يفيد سبباً لنزول الآية]

قال الزركشى فى البرهان قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أَن أَحدهم إذا قال نزلت هذه الآية فى كذا . فإنه يريد بذلك أَنها تتضمن هذا الحكم لا أَن هذا كان السبب فى نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع .

آية واحدة وأسباب متعددة :

يذكر المفسرون ـ لنزول الآية أسباباً متعددة فإذا حصل مثل هـذا فى آية واحده وصورته أن يقول أحدهم هذه الآية نزلت فى كذا . ويقول الآخر نزلت فى كذا ويذكر شيئاً غير ما ذكره الأول . من غير تصريح بسبب النزول . فهذا غالباً ما يراد به التفسير لا ذكر سبب النزول ولا منافاة بين قولهما إذا كان اللفظ يتناولهما . وان عبّر واحد بقوله نزلت فى كذا وصرّح الآخر بذكر سبب خلافه فهو المعتمد وذاك استنباط .

وان ذكر واحد سبباً وآخر سبباً غيره فإن كان إسناد أحدهما صحيحاً دون الآخر فالصحيح المعتمد .

مثاله أنه ثبت فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته إمرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك فانزل الله [والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى] .

وروى الطبرانى أن جروا دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فمات تحت السرير ومكث أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى حتى تنبهوا له وأخرجوه فنزل جبريل بقوله والضحى .

قال ابن حجر فى الفتح قصة أبطاء جبريل بسبب الجرو شهيرة لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفى إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما فى الصحيح .

ويمكن أن يكون نزول الآية عقب السببين أو الأسباب فتحمل

على ذلك . إذ لا مانع من تعدد الأسباب ويمكن أن يتعدد نزول الآية ويتكرر ويكون لكل نزول سبب [مثاله] أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به . فقال لأمثلن بسبعين مكانك فنزل جبريل – والنبي صلى الله عليه وسلم واقف – وخواتيم سورة النحل وفيها (وأن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به] أخرجه البيهقي والبزار .

وجاء أنها نزلت يوم الفتح لمّا قال الأنصار لئن أصبنا منهم يوماً مثل أحد لنرمين عليهم أخرجه الترمذى والحاكم فيجمع بينهما بأنها نزلت أولاً بمكة قبل الهجرة مع السورة لأنها مكية ثم ثانياً بأحد ثم ثالثاً يوم الفتح .

آيات متفرقة والسبب واحد :

وهذا واقع فقد ينزل فى الواقعة الواحدة آيات عديدة فى سور شتى مثاله ما أخرجه الترمذى والحاكم عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشيء فأنزل الله [فاستجاب لهم ربهم] إلى آخر الآيات فى سورة آل عمران ١٩٥ .

وأخرج الحاكم أيضاً عنها قالت : قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا يذكر النساء فأنزلت [ان المسلمين والمسلمات] الأحزاب : ٣٥. وأنزلت [أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى] .

ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة

الأصل فى هذا الباب موافقات عمر فقد كان يتحدث فى أمر من الأمور . وإذا بالقرآن ينزل موافقاً لقوله وهى مناقبه . المشهورة . فقد جاء فى الحديث أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه (رواه الترمذى).

أخرج البخارى وغيره عن أنس قال: قال عمر وافقت ربى فى ثلاث قلت يا رسول الله [لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى] .

فنزلت [واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى] وقلت يارسول اللهإن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك وقد جمع الإمام السيوطى رسالة خاصة فى موافقات عمر سماها الكوكب الأغرّ فى موافقات عمر .

ما تكرر نزوله

ذكرجماعة من العلماء المتقدمين والمتأخرين بأن من القرآن ما تكرر نزوله ولذلك حِكم : منها التذكير والموعظة ومنها وجود المقتضى ومنها إظهار فضل زائد للمتنزل وقد ذكر بعضهم أن من ذلك آية الروح والفاتحة وسورة الأخلاص ويجوز أن يكون تكرار النزول لفائدة اختلاف حرف القراءة فتنزل الآية مرة على حرف ومرة أخرى على حرف غيره ولا يبعد أن تكون الفاتحة نزلت مرة بحرف [مالك يوم الدين] ومرة بحرف [ملك يوم الدين] .

فى معرفة حفاظه ورواته

روى البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «خذوا القرآن من أربعة : من عبدالله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبى بن كعب » أى تعلموا منهم والأربعة المذكورون اثنان من المهاجرين وهما المبدوء بهما واثنان من الأنصار .

وسالم هو ابن معقل مولى أبى حذيفة ومعاذ هو ابن جبل .

وليس معنى هذا أن هؤلاء فقط هم الحفاظ بل هناك غيرهم مثلهم . وفى الصحيح فى غزوة بئر معونة ، أن الذين قتلوا بها من الصحابة كان يقال لهم القراء ، وكانوا سبعين رجلا .

وروى البخارى أيضاً عن قتادة ، قال : : سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : : أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت وأبو زيد ، قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى .

وروى أيضاً من طريق ثابت ، عن أنس ، قال : مات النبى صلى عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . وفيه مخالفة لحديث قتادة من وجهين : أحدهما التصريح بصيغة الحصر فى الأربعة ، والآخر ذكر أبى الدرداء بدل أبى بن كعب ، وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر فى الأربعة.

وقال المازرى : لا يلزم من قول أنس : «لم يجمعه غيرهم » أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد ! وهذا لا يتم إلا إن كان لقى كل واحد منهم على إنفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا فى غاية البعد فى العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما فى علمه لم يلزم أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك قال وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولامتمسك لهم فيه فانالانسلم حمله على ظاهره فان سلمناه لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألاَّ

يكون حفظ مجموعه الجم الغفير ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل ولو على التوزيع كفى .

وقال القرطبي : قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هذا العدد ، قال : وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم ، أو لكونهم كانوا فى ذهنه دون غيرهم .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانى :الجواب عن حديث أنس من أوجه :

أحدها : أنه لا مفهوم له . فلا يلزم ألا يكون غيرهم جمعه .

الثانى : المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التى نزل بها إلا أولئك .

الثالث لم يجمع ما نسخ منه بعد تلاوته وما لم ينسخ إلا أولئك .

الرابع : أن المراد بجمعه تلقيه من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بواسطة بخلاف غيرهم ، فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة .

الخامس : أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه ، فاشتهروا به ، وخفى حال غيرهم عمن عرف حالهم ، فحصر ذلك فيهم بحسب علمه ، وليس الأمر فى نفس الأمر كذلك .

السادس : المراد بالجمع الكتابة ، فلا ينفى أن يكون غيرهم جمعه حفظاً عن ظهر قلبه ، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب .

السابع : المراد أن أحداً لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أولئك بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك ، لأن أحداً منهم لم يكمله إلا عند وفاة رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين نزلت آخر آية ، فلعل هذه الآية الأخيرة ، وما أشبهها ما حضرها إلا أولئك الأربعة ممن جمع جميع القرآن قبلها ، وإن كان قد حضرها من لم يجمع غيرها الجمع الكثير .

الثامن : أن المراد بجمعه السمع والطاعة له ، والعمل بموجبه وقد أخرج أحمد فى الزهد من طريق أبى الزاهرية ، أن رجلا أتى أبا الدرداء، فقال : إن ابنى جمع القرآن ، فقال : : اللهم غفرا ، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع .

قال ابن حجر : وفى غالب هذه الاحتمالات تكلف ، ولا سيما الأخير قال : وقد ظهر لى احتمال آخر ، وهو أن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط ، فلا ينفى ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين ، لأنه قال ذلك فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج . كما أخرجه ابن جرير من طريق سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أنس ،قال : افتخر الحيان : الأوس والخزرج ، فقال الأوس : منا أربعة : من اهتز له العرش سعد بن معاذ ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبى عامر ، ومن حمته الدبر عاصم بن ثابت ، فقال الخزرج : منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم قال : : والذى يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فى الصحيح أنه بنى مسجداً بفناء داره ،فكان يقرأ فيه القرآن،وهو محمول على ماكان نزل منه إذ ذاك . قال : وهذا مما لا يرتاب فيه مع شدة حرص أبى بكر على تلقى القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم وفراغ باله له وهما بمكة وكثرة ملازمة كل منهما للآخر ، حتى قالت: عائشة إنه صلى الله عليه وسلم

كان يأتيهم بكرة وعشيا . وقد صح حديث : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله » وقد قدّمه صلى الله عليه وسلم فى مرضه إماماً للمهاجرين والأنصار ، فدل على أنه كان أقرأهم .

وذكر أبو عبيد فى كتاب القراءات : القراء من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فعد من المهاجرين الخلفاء الأربعة ، وطلحة وسعداً وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة ، وعبدالله بن السائب والعبادلة وعائشة وحفصة وأم سلمة . ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذ الذى يكنى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد . وصرّح بأن بعضهم إنما أكمله بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

أما المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة : سبعة عثمان وعلى ، وأبى ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى ، كذا ذكرهم الذهبى فى طبقات القراء ، قال : وقد قرأ على أُبىّ جماعة من الصحابة ، منهم أبو هريرة وابن عباس وعبدالله بن السائب ، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضاً ، وأخذ عنهم خلق من التابعين .

فممن كان بالمدينة : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان وعطاء ابنا يسار ، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارى ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وابن شهاب الزهرى ، ومسلم بن جندب ، وزيد بن أسلم .

وبمكة : عبيد بن عمير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس ، ومجاهد وعكرمة ، وابن أبى مليكة .

وبالكوفة : علقمة ، والأسود ، والمسروق ، وعبيدة ، وعمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس ، والربيع بن خيثم ، وعمرو بن ميمون ،

وأبو عبد الرحمن السلمى ، وزر بن حبيش ، وعبيد بن نضيلة ، وسعيد بن جبير ، والنخعى ، والشعبى .

وبالبصرة : أبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة .

وبالشام : المغيرة بن أبى شهاب المخزومى صاحب عثمان ، وخليفة ابن سعد صاحب أبى الدرداء .

ثم تجرد قوم ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية ، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ، فكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم نافع بن نعيم وبمكة : عبدالله بن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن أبى محيصن .

وبالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبى النجود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائى .

وبالبصرة : عبدالله بن إسحاق ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعاصم الجحدرى ، ثم يعقوب الحضرمى .

وبالشام : عبدالله بن عامر ، وعطيه بن قيس الكلابى ، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحى بن الحارث الذمارى ثم شريح بن يزيد الحضرمى .

واشتهر من هؤلاء فى الآفاق الأئمة السبعة .

نافع ، وقد أخذ عن سبعين من التابعين ،منهم أبو جعفر- وابن كثير وأخذ عن عبدالله بن السائب الصحابى .

وأبو عمرو ، وأخذ عن التابعين .

وابن عامر ، وأخذ عن أبى الدرداء ، وأصحاب عثمان .

وعاصم ، وأخذ عن التابعين .

وحمزة ، وأخذ عن عاصم والأعمش والسبيعى ومنصور بن المعتمر وغيره والكسائى ، وأخذ عن حمزة وأبى بكر بن عياش .

ثم انتشرت القراءات فى الأقطار ، وتفرقوا أمماً بعد أمم ، واشتهر من رواة كل طريق من طرق السبعة راويان :

فعن نافع : قالون وورش ، عنه .

وعن ابن كثير : قنبل والبزى ، عن أصحابه عنه .

وعن أبى عمرو : الدورى والسوسى ، عن اليزيدى ، عنه .

وعن ابن عامر : هشام وابن دكوان عن أصحابه ، عنه.

وعن عاصم : أبو بكر بن عياش ، وحفص ، عنه .

وعن حمزة : خلف وخلاد ، عن سليم عنه .

وعن الكسائى : الدورى ، وأبو الحارث .

ثم لما اتسع الخرق وكاد الباطل يلتبس بالحق قام جهابذة الأمة . وبالغوافى الاجتهاد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الوجوه والروايات ، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ بأصول أصلوها وأركان فصولها .

فأول من صنف فى القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن جبير الكوفى ثم اسماعيل بن إسحاق المالكى صاحب قالون ثم أبو جعفر بن جرير الطبرى ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجونى ، ثم أبو بكر بن مجاهد ، ثم قام الناس فى عصره وبعده بالتأليف فى أنواعها ، جامعاً ومفرداً ، وموجزاً ومسهباً ، وأئمة القراءات لا تحصى

وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبدالله الذهبي ثم حفظ لقراءات أبو الخير بن الجزرى .

معرفة المتواتر والمشهور والآحاد

والشاذ والموضوع والمدرج

القراءة تنقسم إلى : متواتر وآحاد وشاذ .

وأحسن من تكلم فى هذا النوع إمام القراء فى زمانه شيخ شيوخنا أبو الخير الجزرى ، قال فى أول كتابه «النشر» : وكل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا . وصح سندها ، فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها ، سواء كانت عن الأئمة السبعة ، أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة ، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم . هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف ثم قال ابن الجزرى : فقولنا فى الضابط : «ولو بوجه» نريد به وجهاً من وجوه النحو ، سواء كان أفصح أم فصيحاً ، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ، إذا كانت القراء مما شاع وذاع ، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح ، إذ هو الأصل الأعظم ، والركن الأقوم . وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ، ولم يعتبر إنكارهم كإسكان : «بارئكم» و«يأمركم» وخفض «والأرحام» .

ثم قال ابن الجزرى : ونعنى بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً

فى بعضها ون بعض ، كقراءة ابن عامر : « قالوا اتخذ الله » فى البقرة بغير واو و « بالزبر وبالكتاب » بإثبات الباء فيهما ، فإن ذلك ثابت فى المصحف الشامى ، وكقراءة ابن كثير « تجرى من تحتها الأنهار » فى آخر براءة ، بزيادة « من » فإنها ثابت فى المصحف المكى ، ونحو ذلك ، فإن لم تكن فى شيء من المصاحف العثمانية فشاذ لمخالفتها الرسم المجمع عليه .

قال : وقولنا : « وصح مسندها » نعنى به أن يروى تلك القراءة العدل الضابط عن مثله ، وهكذا حتى ينتهى ، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن ، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم

وقد أتقن الإمام الجزرى هذا الفصل جداً ، وقد تحرر لى منه أن القراءات أنواع :

الأول : المتواتر وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، وغالب القراءات كذلك .

الثانى : المشهور ، وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ، ووافق العربية والرسم ، واشتهر عند القراء ، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، ويقرأ به على ماذكر ابن الجزرى . ومثاله ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض ، وأمثلة ذلك كثيرة فى فرش الحروف من كتب القراءات كالذى قبله ، ومن أشهر ما صنف فى ذلك التيسير للدانى ، وقصيدة الشاطبى ، وأوعية النشر فى القراءات العشر ، وتقريب النشر ، كلاهما لابن الجزرى .

الثالث : الآحاد ، وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، ولا يقرأ به ، وقد عقد الترمذى فى جامعه ،

والحاكم فى مستدركه لذلك باباً أخرجا فيه شيأ كثيراً صحيح الإسناد ، من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدرى عن أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : «متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان » .

وأخرج من حديث أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قرأ : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرت أعين » .

وأخرج عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قرأ : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم » بفتح الفاء . وأخرج عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قرأ : «فروح وريحان» يعنى بضم الراء .

الرابع : الشاذ ، وهو ما لم يصح سنده ، وفيه كتب مؤلفه ، من ذلك قراءة « ملك يوم الدين » بصيغة الماضى ، ونصب «يوم» و«إياك يعبد » ببنائه للمفعول .

الخامس : الموضوع كقراءات الخزاعى .

ظهر لى سادس يشبه من أنواع الحديث المدرج ، وهو ما زيد فى القراءات على وجه التفسير ، كقراءة سعد بن أبى وقاص «وله أخ أو أخت من أم » أخرجها سعيد بن منصور .

وقراءة ابن عباس «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » أخرجها البخارى .

وقراءة ابن الزبير «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم » قال عمر : فما أدرى : أكانت قراءته أم فسّر ؟ أخرجه سعيد بن منصور ، وأخرجه الأنبارى ، وجزم بأنه تفسير .

وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ : «وإن منكم إلا واردها» «والورود الدخول». قال الأنبارى : قوله : «الورود الدخول» تفسير من الحسن لمعنى الورود . وغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن ومن المشكل ما نقل : أن ابن مسعود كان يُنكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن،وهو فى غاية الصعوبة ،لأنا أن قلنا : إن النقل المتواتر كان حاصلا فى عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر ، وإن قلنا : لم يكن حاصلا فى ذلك الزمان ، فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل . قال : وإلا غلب على الظن أن نقل هذا عن ابن مسعود نقل باطل ، وبه يحصل الخلاص عن هذه العقدة . لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه . إنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها لا جحداً لكونها قرآناً ، لأنه كانت السنة عنده ألا يكتب فى المصحف إلا ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإثباته فيه ، ولم يجده كتب ذلك ولا سمعه أمر به .

وقال النووى : وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح .

قال ابن حجر : فقول من قال إنه كذب عليه مردود ، والطعن فى الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل ، بل الروايات صحيحة والتأويل محتمل : وحاصله أنهما كانتا متواترتين فى عصره ، لكنهما لم يتواترا عنده . انتهى .

وقال ابن قتيبة فى مشكلة القرآن : ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن لأنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ، ولا نقول أنه أصاب فى ذلك وأخطأ

[المهاجرون والأنصار .

وقد نص على تواتر ذلك كله أئمة الأصول كالقاضى أبى بكر وغيره ، وهو الصواب ، لأنه إذا ثبت تواتر اللفظ ثبت تواتر هيئة أدائه ، لأن اللفظ لا يقوم إلا به ، ولا يصح إلا بوجوده .

قال مكى : من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هى الأحرف السبعة التى فى الحديث فقد غلط غلطاً عظيما . قال : ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة وغيرهم . ووافق خط المصحف ، ألا يكون قرآناً ، وهذا غلط عظيم . والسبب فى الاقتصار على السبعة — مع أن فى أئمة القراء من هو أجل منهم قدراً أو مثلهم أكثر من عددهم — أن الرواة عن الأئمة كانوا . كثيراً جداً ، فلما تقاصرت الهمم ، اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به ، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة به والانفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماماً واحداً ، ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة به ، كقراءة يعقوب وأبى جعفر وشيبة وغيرهم .

وأصح القراءات سنداً نافع وعاصم ، وأفصحها أبو عمر ووالكسائى وأعلم أن الخارج عن السبع المشهورة على قسمين :منه ما يخالف رسم المصحف فهذا لا شك فيه أنه لا تجوز قراءته لا فى الصلاة ولا فى غيرها.

ومنه ما لا يخالف رسم المصحف ، ولم تشتهر القراءة به ، وإنما ورد من طريق غريب لا يعول عليها ، وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضاً . ومنه ما اشتهر عند أئمة هذا الشأن القراءة به قديماً وحديثاً ، فهذا

لا وجه للمنع منه ، ومن ذلك قراءة يعقوب وغيره .

باختلاف القراءات يظهر الاختلاف فى الأحكام ، ولهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءة فى «لمستم» و «لامستم».

أوجه التحمل

وأوجه التحمل عند أهل الحديث ،السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه والسماع عليه بقراءة غيره ، والمناولة والإجازة والمكاتبة والوصية والإعلام والوجادة .

وأما القراءة على الشيخ فهى المستعملة سلفاً وخلفاً ، وأما السماع من لفظ الشيخ فيحتمل أن يقال به هنا ، لأن الصحابة رضى الله عنهم إنما أخذوا القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم ، لكن لم يأخذ به أحد من القراء والمنع فيه ظاهر ، لأن المقصود هنا كيفية الأداء ، وليس كل من سمع من لفظ الشيخ يقدر على الأداء كهيئته ، بخلاف الحديث . فإن المقصود فيه المعنى أو واللفظ لا بالهيئات المعتبرة فى أداء القرآن ، وأما الصحابة فكانت فصاحتهم وطباعهم السليمة تقتضى قدرتهم على الأداء، كما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه نزل بلغتهم. ومما يدل للقراءة على الشيخ عرض النبى صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل فى رمضان كل عام ، ويحكى أن الشيخ شمس الدين بن الجزرى لما قدم القاهرة وازدحمت عليه الخلق ، لم يتسع وقته لقراءة الجميع فكان يقرأ عليهم الآية ، ثم يعيدونها عليه واحدة ، فلم يكتف بقراءته .

وتجوز القراءة على الشيخ ، ولو كان غيره يقرأ عليه فى تلك الحالة

إذا كان بحيث لا يخفى عليه حالهم . وقد كان الشيخ علم الدين السخاوى يقرأ عليه اثنان وثلاثة فى أماكن مختلفة ، ويرد على كل منهم وكذا لو كان الشيخ مشتغلا بشغل آخر كنسخ أو مطالعة .

وأما القراءة من الحفظ فالظاهر أنها ليست بشرط ، بل يكفى ولو من المصحف كيفيات القراءة ثلاث :

إحداها : التحقيق ، وهو إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمزة وإتمام الحركات واعتماد الاظهار والتشديدات ، وبيان الحروف وتفكيكها وإخراج بعضها من بعض ، بالسكت والترتيل والتؤدة وملاحظة الجائز من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرك ولا إدغامه ، وهو يكون لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ .

ويستحب الأخذ به على المتعلمين من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط بتوليد الحروف من الحركات ، وتكرير الراءات ، وتحريك السواكن ، وتطنين النونات بالمبالغة فى الغنات ، كما قال حمزة لبعض من سمعه يبالغ فى ذلك : أما علمت أن ما فوق البياض برص ، وما فوق الجعودة قطط ، وما فوق القراءة ليست بقراءة .

الثانية : الحدر ، بفتح الحاء وسكون الدال المهملتين ، وهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين ، والاختلاس والبدل والإدغام الكبير ، وتخفيف الهمزة ، ونحو ذلك مما صحت به الرواية مع مراعاة إقامة الاعراب وتقويم اللفظ ، وتمكين الحروف بدون بتر حروف المد ، واختلاس أكثر الحركات ، وذهاب صوت الغنة والتفريط إلى غاية لا تصلح بها القراءة .

الثالثة : التدوير ، وهو التوسط بين المقامين من التحقيق والحدر

وهو الذى ورد عن أكثر الأئمة ممن مد المنفصل ، ولم يبلغ فيه الاشباع وهو مذهب سائر القراء ، وهو المختار عند أكثر أهل الأداء .

من المهمات تجويد القرآن ، وقد أفرده جماعة كثيرون بالتصنيف ومنهم الدانى وغيره ، أخرج عن ابن مسعود أنه قال : «جودوا القرآن»

قال القراء : التجويد حلية القراءة ، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، وتلطيف النطق به على كمال هيئته ، من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف ، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» — يعنى ابن مسعود — وكان رضى الله عنه قد أعطى حظاً عظيما فى تجويد القرآن ، ولا شك أن الأمة ، كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده ، هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراء ، المتصلة بالحضرة النبوية وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحناً .

فصـــل
فى كيفية الأخذ بإفراد القراءات وجمعها

الذى كان عليه السلف أخذ كل ختمه برواية ، لا يجمعون رواية إلى غيرها إلى سنة خمسمائة ، فظهر جمع القراءات فى الختمة الواحدة ، واستقر عليه العمل ، ولم يكونوا يسمحون به إلا لمن أفرد القراءات ، وأتقن ، طرقها ، وقرأ لكل قارىء بختمة على حدة ، بل إذا كانت للشيخ روايات قرءوا لكل راو بختمة ، ثم يجمعون له ، وهكذا .

وتساهل قوم ، فسمحوا أن يقرأ لكل قارىء من السبعة بختمة سوى

نافع وحمزة ، فإنهم كانوا يأخذون ختمة لقالون ، ثم ختمة لورش ، ثم ختمة لخلف ، ثم ختمة لخلاد ، ولا يسمح أحد بالجمع إلا بعد ذلك، نعم إذا رأوا شخصاً أفرد وجمع على شيخ معتبر ، وأجيز وتأهل ، وأراد أن يجمع القراءات فى ختمة لا يكلفونه الإفراد لعلمهم بوصوله إلى حد المعرفة والإتقان . ثم لهم فى الجمع مذهبان :

أحدهما : الجمع بالحرف بأن يشرع فى القراءة ، فإذا مر بكلمة فيها خلف أعادها بمفردها ، حتى يستوفى ما فيها ، ثم يقف عليها إن صلحت للوقف ، وإلا وصلها بآخر وجه ، حتى ينتهى إلى الوقف.

الثانى : الجمع بالوقف بأن يشرع بقراءة من قدمه حتى ينتهى إلى وقف، ثم يعود إلى القارىء الذى بعده إلى ذلك الوقف ، ثم يعود ، وهكذا حتى يفرغ ، وهذا مذهب الشاميين ، وهو أشد استحضاراً ، وأطول زمناً ، وأجود مكاناً .

وذكر أبو الحسن القبحاطى فى قصيدته وشرحها : الجامع القراءات شروطاً سبعة ، حاصلها خمسة :

أحدها : حسن الوقف.

ثانيها : حسن الإبتداء .

ثالثها : حسن الأداء .

رابعها : عدم التركيب ، فإذا قرأ القارىء لا ينتقل إلى قراءة غيره حتى يتم ما فيها .

الخامس : رعاية الترتيب فى القراءة والابتداء بما بدأ به المؤلفون فى كتبهم ، فيبدأ بنافع قبل ابن كثير ، ويقالون قبل ورش .

قال ابن الجزرى : والصواب أن هذا ليس بشرط بل مستحب .

وأما قدر ما يقرأ حال الأخذ ، فقد كان الصدر الأول لا يزيدون على عشر آيات لكائن من كان ، وأما من بعدهم فرواه بحسب قوة الأخذ .

فائـــدة

ادّعى ابن خير الإجماع على أنه ليس لأحد أن ينقل حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ما لم يكن له به رواية ، ولو بالإجازة ، فهل يكون حكم القرآن كذلك ، فليس لأحد أن ينقل آية أو يقرأها ما لم يقرأها على شيخ ، لم أر فيه نقلا ، ولذلك وجه من حيث إن الاحتياط فى أداء ألفاظ القرآن أشد منه فى ألفاظ الحديث ، ولعدم اشتراطه فيه وجه ، من حيث أن اشتراطه ذلك فى الحديث ، إنما هو لخوف . أن يدخل فى الحديث ما ليس منه ، أو يتقول على النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ، والقرآن محفوظ متلقى متداول ميسر ، وهذا هو الظاهر .

فائدة ثانيـــة

الإجازة من الشيخ غير شرط فى جواز التصدى للإقراء والإفادة فمن علم من نفسه الأهلية جاز له ذلك ، وإن لم يجزه أحد ، وعلى ذلك السلف الأولون والصدر الصالح ، وكذلك فى كل علم وفى الإقراء والإفتاء خلافاً لما يتوهمه الأغبياء من اعتقاد كونها شرطاً ، وإنما اصطلح الناس على الإجازة ، لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالباً من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم لقصور مقامهم عن ذلك ، والبحث عن الأهلية قبل الأخذ شرط ، فجعلت الإجازة كالشهادة من الشيخ للمجاز بالأهلية .

يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته ، قال تعالى مثنياً على من كان ذلك دأبه : ﴿يتلون آيات الله آناء الليل﴾ وفى الصحيحين من

حديث ابن عمر : «لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» وروى الترمذى من حديث ابن مسعود «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها» وأخرج من حديث أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم : «يقول الرب سبحانه وتعالى : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه».

وأخرج مسلم من حديث أبى أمامة : «اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وأخرج البيهقى من حديث عائشة : «البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض».

وأخرج من حديث أنس : «نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن»

وأخرج من حديث النعمان بن بشير : «أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن.

وأخرج من حديث سمرة بن جندب : «كل مؤدب يحب أن تؤتى مأدبته ومأدبة الله القرآن ، فلا تهجروه».

عادات السلف فى قدر القراءة :

وقد كان للسلف فى قدر القراءة عادات فقد جاء أن بعضهم كان يختم القرآن فى اليوم والليلة ثلاث مرات وبعضهم مرتين وبعضهم مرة وقيل غير ذلك .

وقد ذمت عائشة ذلك ، فأخرج ابن أبى داود عن مسلم بن مخراق قال قلت لعائشة : إن رجالا يقرأ أحدهم القرآن فى ليلة مرتين أو ثلاثا ؛

فقالت : قرءوا أو لم يقرءوا ، كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة التمام ، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمر بآية فيها استبشار الا دعا ورغب ، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ» .

ويلى ذلك من كان يختم فى ليلتين ، ويليه من كان يختم فى كل ثلاث وهو حسن .

وكره جماعات : الختم فى أقل من ذلك ، لما روى أبو داود والترمذى وصحّحه من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً : «لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » .

وأخرج ابن أبى داود وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفاً ، قال : «لا تقرءوا القرآن فى أقل من ثلاث » .

وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث » .

وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر — وليس له غيره — قال : قلت : يا رسول الله ، أقرأ القرآن فى ثلاث ؟ قال : نعم ، إن استطعت .

ويليه من ختم فى أربع ، ثم فى خمس ، ثم فى ست ، ثم فى سبع ، وهذا أوسط الأمور وأحستها ، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم .

وأخرج الشيخان عن عبدالله بن عمرو ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إقرأ القرآن فى شهر » قلت : إنى أجد قوة ، قال : إقرأه فى عشر ، قلت : إنى أجد قوة ، قال : اقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك » .

وأخرج أبو عبيد وغيره من طريق واسع بن حبان ، عن قيس ابن

أبى صعصعة ـ وليس له غيره ـ أنه قال : يا رسول الله ، فى كم أقرأ القرآن ؟ قال : فى خمسة عشر ، قلت : إنى أجد أقوى من ذلك ، قال : إقرأه فى جمعة .

ويلى ذلك : من ختم فى ثمان ، ثم فى عشر ، ثم فى شهر ، ثم فى شهرين أخرج ابن أبى داود ، عن مكحول ، قال : كان أقوياء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرءون القرآن فى سبع ، وبعضهم فى شهر وبعضهم فى شهرين ، وبعضهم فى أكثر من ذلك .

وقال أبو الليث فى البستان : ينبغى للقارىء أن يختم فى السنة مرتين إن لم يقدر على الزيادة.

وقد روى الحسن بن زياد عن أبى حنيفة ، أنه قال : من قرأ القرآن فى كل سنة مرتين ، فقد أدى حقه لأن النبى صلى الله عليه وسلم عرض على جبريل فى السنة التى قبض فيها مرتين .

وقال النووى فى الأذكار : المختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك من مكان مشغولا بنشر العلم ، أو فصل الحكومات ، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ، ولا فوات كماله ، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة فى القراءة .

يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يكره أن يذكر الله إلا على طهر ، كما ثبت فى الحديث .

ونسن القراءة فى مكان نظيف ، وأفضله المسجد ، وكره قوم القراءة فى الحمام والطريق .

ويستحب أن يجلس مستقبلا متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه .

ويسن أن يستاك تعظيما وتطهيراً ، وقد روى ابن ماجة عن على موقوفاً والبزار بسند جيد عنه مرفوعاً : « إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك » .

ويسن التعوذ قبل القراءة ، قال تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » . أى إذا أردت قراءته .

قال النووى : وصفته المختارة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وكان جماعة من السلف يزيدون : « السمع العليم » .

وعن حميد بن قيس : « أعوذ بالله القادر ، من الشيطان الغادر » .

وعن أبى السمان : « أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى » .

وعن قوم : « أعوذ بالله العظيم ، من الشيطان الرجيم » .

وعن أخرين : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم » . وفيها ألفاظ أخر . قال الحلوانى فى جامعه : ليس للاستعاذة حد ينتهى إليه ، من شاء زاد ومن شاء نقص وليحافظ على قراءة البسملة أول كل سورة ، غير براءة ، لأن أكثر العلماء على أنها آية فإذا أخل بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين ، فإذا قرأ من أثناء سورة استحبت له أيضاً ، نص عليه الشافعى .

ويسن الترتيل فى قراءة القرآن ، قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة ، أنها نعتت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم « قراءة مفسرة حرفاً حرفاً » .

وفى البخارى عن أنس ، أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كانت مدا ، ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . يمد «الله» ويمد «الرحمن» ، ويمد « الرحيم » .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود ، أن رجلا قال له : إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدة ، فقال : « هذا كهذ الشعر ، إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع » .

وأخرج الآجرى فى جملة القرآن ، عن ابن مسعود قال : لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركو به القلوب ولا يكون هم أحدكم آخر السورة » .

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً : « يقال لصاحب القرآن إقرأ وارق فى الدرجات ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها » .

قال فى شرح المهذب : واتفقوا على كراهة الإفراط فى الإسراع .

قالوا : وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين فى قدر ذلك الزمن بلا ترتيل .

قالوا : واستحباب الترتيل للتدبر ، لأنه أقرب إلى الإجلال والتوفير وأشد تأثيراً فى القلب .

واختلف : هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة ، أو السرعة مع كثرتها؟ وأحسن بعض أئمتنا ، فقال : إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً ، وثواب الكثرة أكثر عدداً لأن بكل حرف عشر حسنات .

وفى البرهان للزركشى : كمال الترتيل تفخيم ألفاظه والإبانة

عن حروفه ، وألا يدغم حرف فى حرف .

وقيل : هذا أقله وأكمله أن يقرأه على منازله ، فإن قرأ تهديدا لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيما لفظ به على التعظيم .

ويسن القراءة بالتدبر والتفهم ، فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » .

وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر فى معنى ما يلفظ به ، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأمر والنواهى ، ويعتقد قبول ذلك .

فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة استبشروا وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوذ ، أو تنزيه نزه وعظم ، أو دعاء تضرع وطلب .

أخرج مسلم عن حذيفة ، قال : صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها ، ثم آل عمران فقرأها ، ثم النساء ففرأها يقرأ مترسلا ، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح ،وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ .

ومن التدبر أن يجيب نداء القرآن إذا اقتضى ذلك ، وهو ما أشار إليه الحديث الذى أخرجه أبوداود والترمذى : « من قرأ والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ، فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى آخرها : « أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » فليقل بلى : ومن قرأ والمراسلات ، فبلغ : « فبأى حديث بعده يؤمنون » فليقل : آمنا بالله » .

وأخرج أبوداود عن ابن عباس ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان

إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى ، قال : سبحان ربى الأعلى » .

وأخرج الترمذى والحاكم ، عن جابر ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوّلها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

وأخرج ابن مردوية والديلمى وابن أبى الدنيا فى الدعاء وغيرهم بسند ضعيف جداً ، عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ...» الآية ، فقال : اللهم أمرت بالدعاء وتكفلت بالإجابة ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك ، أشهد أنك فرد أحد صمد ، لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفؤا أحد ، وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق ، والجنة حق والنار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنك تبعث من فى القبور .

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حجر ، سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « ولا الضالين » فقال : « آمين » يمد بها صوته .

وهو معنى إجابة القرآن .

وأخرجه الطبرانى بلفظ قال : « آمين » ثلاث مرات وأخرجه البيهقى بلفظ : قال : « رب اغفر لى آمين » .

قال النووى : ومن الآداب إذا قرأ نحو : « وقالت اليهود عزيز ابن الله » « وقالت اليهود يد الله مغلولة » أن يخفض بها صوته . كذا كان النخعى يفعل.

يستجيب البكاءُ عند قراءة القرآن والتباكى لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع ، قال تعالى : «ويخرون للأذقان يبكون».

وفى الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم : وفيه : «فإذا عيناه تذرفان».

وفى الشعب للبيهقى عن سعد بن مالك مرفوعاً : «إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » وفيه من مرسل عبد الملك بن عمير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنى قارىء عليكم سورة ، فمن بكى فله الجنة ، فإن لم تبكوا فتباكوا».

وفى مسند أبى يعلى حديث : « إقرءوا والقرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن » .

وعند الطبرانى : «أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحزن به » .

قال فى شرح المهذب : «وطريقه فى تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد ، والمواثيق والعهود ثم يفكر فى تقصيره فيها ، فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب».

يسن تحسين الصوت بالقراءة وتزينها لحديث ابن حبان وغيره : «زينوا القرآن بأصواتكم» وفى لفظ عند الدارمى : « حسنوا القرآن بأصواتكم ، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً » .

وأخرج البزار وغيره حديث : « حسن الصوت زينه القرآن » وفيه أحاديث صحيحة كثيرة ، فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط والغناء لما جاء فى الحديث : «اقرءوا

القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق ، فإنه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم » أخرجه الطبراني والبيهقي .

قال النووي : ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والإصغاء إليها ، للحديث الصحيح ، ولا بأس باجتماع الجماعة في القراءة ولا بإدارتها ، وهي أن يقرأ بعض الجماعة قطعة ثم البعض قطعة بعدها .

يستحب قراءته بالتفخيم لحديث الحاكم : « نزل القرآن بالتفخيم » قال الحليمي : ومعناه أنه يقرؤه على قراءة الرجال ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء .

قال : ولا يدخل في هذا كراهة الإمالة التي هي اختيار بعض القراء وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم فرخص مع ذلك في إمالة ما يحسن إمالته .

رفع الصوت بالقراءة :

وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة ، وأحاديث تقتضي الأسرار وخفض الصوت ، فمن الأول حديث الصحيحين : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » .

ومن الثاني حديث أبي داود والترمذي والنسائي : الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة » قال : النووي : والجمع بينهما أن الاخفاء أفضل ، حيث خاف الرياء ، أو تأذى مصلون أو ينام بجهره ، والجهر أفضل في غير ذلك ، لأن العمل فيه أكثر ،

ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأنه يوقظ قلب القارىء ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه ، ويطرد النوم ، ويزيد فى النشاط ويدل لهذا الجمع حديث أبى داود بسند صحيح ، عن أبى سعيد : اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف الستر ،وقال : ألا إن كلكم مناج لربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضاً ، ولا يرفع بعضكم على بعض فى القراءة » .

وقال بعضهم : يستحب الجهر ببعض القراءة والاسرار ببعضها لأن المسرّ قد يمل فيأنس بالجهر ، والجاهر قديكل فيستريح بالإسرار ،

القراءة فى المصحف :

القراءة فى المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، لأن النظر فيه عبادة مطلوبة .

قال النووى : هكذا قاله أصحابنا والسلف أيضاً . ولم أر فيه خلافاً ،قال ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة ويختار فيه لمن استوى خشوعه وتدبره فى حالة القراءة فيه ومن الحفظ ، ويختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه ويزيد على حشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف ، لكان هذا قولا حسناً قلت : ومن أدله القراءة فى المصحف ما أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أوس الثقفى مرفوعاً : « قراءة الرجل فى غير المصحف ألف درجة ، وقراءته فى المصحف تضاعف ألفى درجة » وأخرج أبوعبيد بسند ضعيف : « فضل قراءة القرآن نظراً ، على من يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة »

وأخرج البيهقى عن ابن مسعود مرفوعاً : «من سرّه أن يحب الله

ورسوله فليقرأ فى المصحف ، وقال : إنه منكر .

وأخرج بسند حسن موقوفاً : «أديموا النظر فى المصحف» .

ومن آداب القراءة أنه : إذا ارتج على القارىء فلم يدر ما بعد الموضع الذى انتهى إليه ، فسأل عنه غيره ، فينبغى له أن يتأدب بما جاء عن ابن مسعود والنخعى وبشير بن أبى مسعود ، قالوا : إذا سأل أحدكم أخاه عن آية ، فليقرأ ما قبلها ثم يسكت ، ولا يقول كيف كذا وكذا ، فإنه يلبس عليه ، انتهى .

ومن آداب القراءة أن يقرأ على ترتيب المصحف ، قال فى شرح المهذب : لأن ترتيبه لحكمة ، فلا يتركها إلا فيما ورد فيه الشرع كصلاة صبح يوم الجمعة الم تنزيل وهل أتى ونظائره ، فلو فرق السور أو عكسها جاز وترك الأفضل . قال : وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها متفق على منعه ، لأنه يذهب بعض نوع الأعجاز ، ويزيل حكمة الترتيب . .

قلت : وفيه أثر ، أخرج الطبرانى بسند جيد ، عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً ، قال : ذاك منكوس القلب .

وأما خلط سورة بسورة ، فعد الحليمى تركه من الآداب ، لما أخرجه أبو عبيد عن سعيد بن المسيب ، أن رسول الله صلى الله عليه مرّ ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة فقال : يا بلال ، مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة ، قال : أخلط الطيب بالطيب ، فقال : «إقرأ السورة على وجهها . أو قال — على نحوها» مرسل صحيح ، وهو عند أبى داود موصول عن أبى هريرة بدون : آخره .

وأخرجه أبو عبيد من وجه آخر ، عن عمر مولى عَفِرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبلال : « إذا قرأت السورة فانفذها » .

وقال حدثنا معاذ عن ابن عون ، قال : سألت ابن سيرين عن الرجل يقرأ من السورة آيتين ثم يدعها ، ويأخذ فى غيرها ، وقال ليتق أحدكم أن يأثم إثماً كبيراً وهو لا يشعر .

وأخرج عن ابن مسعود ، قال : إذا ابتدأت فى سورة ، فأردت تتحول منها إلى غيرها فتحول إلى «قل هو الله أحد» فإذا ابتدأت فيها فلا تتحول منها حتى تختمها .

وأخرج عن ابن أبى الهذيل قال : كانوا يكرهون أن يقرؤا بعض الآية ويدعوا بعضها .

قال أبو عبيد : الأمر عندنا على كراهة قراءة الآيات المختلفة كما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بلال ، وكما أنكره ابن سيرين

وأما حديث عبدالله ، فوجهه عندى أن يبتدىء الرجل فى السورة يريد إتمامها ، ثم يبدو له فى أخرى ، فأما من ابتدأ القرآءة وهو يريد التنقل من آية إلى آية ، وترك التأليف لآى القرآن فإنما يفعله من لا علم له ، لأن الله لو شاء لأنزله على ذلك . أ هـ .

قال الحليمى : يسن استيفاء كل حرف أثبته قارىء ليكون قد أتى على جميع ما هو قرآن ، وقال ابن الصلاح والنووى : إذا ابتدأ بقرآءة أحد من القرّاء فينبغى ألا يزال على تلك القرآءة ما دام الكلام مرتبطاً ، فإذا انقضى ارتباطه ، فله أن يقرأ بقراءة أخرى . والأولى دوامه على الأولى فى هذا المجلس .

ويسن الاستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحديث بحضور

القرآءة ، قال تعالى : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » .

يسن السجود عند قراءة آية السجدة .

قال النووى : الأوقات المختارة للقراءة ، أفضلها ما كان فى الصلاة ثم الليل ، ثم نصفه الأخير ، وهى بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأفضل النهار بعد الصبح . ولا تكره فى شىء من الأوقاف لمعنى فيه ، وأما ما رواه ابن أبى داود عن معاذ بن رفاعة ، عن مشائخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر — وقالوا : هو دراسة يهود — فغير مقبول ، ولا أصل له

ويختار من الأيام يوم عرفة ثم الجمعة ، ثم الاثنين ، والخميس ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان ، والأول من ذى الحجة ومن الشهور رمضان .

ويختار لابتدائه ليلة الجمعة ، ولختمه ليلة الخميس ، فقد روى ابن أبى داود ، عن عثمان بن عفان ، أنه كان يفعل ذلك .

والأفضل الختم أول النهار أو أول الليل ، لما رواه الدارمى بسند حسن عن سعد بن أبى وقاص ، قال ؛ إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلّت عليه الملائكة حتى يصبح وإن وافق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى قال فى الأحياء : ويكون الختم أول النهار فى ركعتى الفجر ، وأول الليل فى ركعتى سنة المغرب .

ويسن صوم يوم الختم ، أخرجه ابن أبى داود عن جماعة من التابعين ، وأن يحضر أهله وأصدقاؤه أخرج الطبرانى عن أنس ، أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا .

وأخرج ابن أبى داود عن الحكم بن عتيبة ، قال : أرسل إلىّ مجاهد

وعنده أبي أمامه ، وقالا : إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن ، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن .

وأخرج عن مجاهد ، قال : كانوا يجتمعون عند ختم القرآن ويقول : عنده تنزل الرحمة .

ويستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن ، وهى قراءة المكيين

أخرج البيهقى فى الشعب وابن خزيمة من طريق ابن أبى بزة سمعت عكرمة بن سليمان قال : قرأت على إسماعيل بن عبد الله المكى فلما بلغت الضحى ، قال كبّر حتى تختم ، فإنى قرأت على عبد الله بن كثير ، فأمرنى بذلك وقال : قرأت على مجاهد فأمرنى بذلك . وأخبر مجاهد ، أنه قرأ على ابن عباس ، فأمره بذلك .

وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبىّ بن كعب فأمره بذلك كذا أخرجناه موقوفاً . ثم أخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن أبى بزة مرفوعاً .

وأخرجه من هذا الوجه — أعنى المرفوع — الحاكم فى مستدركه وصححه ، وله طرق كثيرة عن البزى .

وعن موسى بن هارون قال : قال لى البزى : قال لى محمد بن إدريس الشافعى : إن تركت التكبير فقدت سنة من سنن نبيك ، قال الحافظ عماد الدين بن كثير : وهذا يقتضى تصحيحه للحديث .

ويسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع فى أخرى عقب الختم لحديث الترمذى وغيره : « أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل ، الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره ، كلما حل ارتحل » .

وأخرج الدارمى بسند حسن ، عن ابن عباس ، عن أبىّ بن كعب ،

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ :«قل أعوذ برب الناس» افتتح من الحمد ، ثم قرأ من البقرة إلى : «أولئك هم المفلحون» ثم دعا بدعاء الختمة ، ثم قام ،

يكره قطع القراءة لمكالمة أحد ، قال الحليمى : لأن كلام الله لا ينبغى أن يؤثر عليه كلام غيره .

وأيده البيهقى بما فى الصحيح : كان ابن عمر إذا قرأ لم يتكلم حتى يفرغ منه — ويكره أيضاً الضحك والعبث والنظر إلى ما يلهى — .ولا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقاً ، سواء أحسن العربية أم لا فى الصلاة أم خارجها .

لا تجوز القراءة بالشاذ : نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك لكن ذكر موهوب الجزرى جوازها فى غير الصلاة ، قياساً على رواية الحديث بالمعنى .

يكره اتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها ، وأخرج الأجرى من حديث عمران بن الحصين مرفوعاً : «من قرأ القرآن ، فليسأل الله به ، فإنه سيأتى قوم يقرءون القرآن يسألون الناس به » .

يكره أن يقول : نسيت آية كذا ، بل أنسيتها ، لحديث الصحيحين فى النهى عن ذلك .

فصـــل

فى الاقتباس وما جرى مجراه

الاقتباس تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن ، لاعلى أنه منـــه بألا يقال فيه قال الله تعالى ونحوه ، فإن ذلك حينئذ لا يكون اقتباساً . وقد اشتهر عن المالكية تحريمه وتشديد النكير على فاعله .

وقد تعرض له جماعة من المتأخرين ، فسئل عنه الشيخ عز الدين

عبد السلام ، فأجازه ، واستدل له بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله فى الصلاة وغيرها:«وجهت وجهى » إلى آخره وقوله «اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقض عنى الدين ، واغننى من الفقر » .

وفى شرح بديعية ابن حجة : الاقتباس ثلاثة أقسام : مقبول ومباح ومردود .

فالأول : ما كان فى الخطب والمواعظ والعهود .

والثانى : ما كان فى الغزل والرسائل والقصص .

والثالث:على ضربين : أحدهما ما نسبه الله إلى نفسه ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بنى مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله : «إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم» . والآخر تضمين آية فى معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك ، كقوله :

أرخى إلى عشاقه طرفه هيهات هيهات لما توعدون
وردفه ينطق من خلفه لمثل هذا فليعمل العاملون

قلت : وهذا التقسيم حسن جداً ، وبه أقول :

وذكر الشيخ تاج الدين السبكى فى طبقاته فى ترجمة الإمام أبى منصور عبد القاهر بن الطاهر التميمى البغدادى من كبار الشافعية وأجلائهم أن من شعره قوله :

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف ثم انتهى ثم أرعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله فى آياته إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

ليس هذان البيتان من الاقتباس لتصريحه بقول الله ، وقد قدمنا أن ذلك خارج عنه . والورع اجتناب ذلك كله ، وأن ينزه عن مثله

كلام الله ورسوله وإن ثبت استعمال الأئمة الأجلاء له ، كالإمام أبي القاسم الرافعي الذي قال :

الملك لله الذي عنت الوجو ه له وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد خسر الذين تجاذبوه وخابوا
دعهم وزعم الملك يوم غرورهم فسيعملون غدا من الكذاب

وروى البيهقي في شعب الإيمان ، عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي ، قال : أنشدنا أحمد بن محمد بن يزيد لنفسه :

سل الله من فضله واتقه فإن التقى خير ما تكتسب
ومن يتق الله يصنع له ويرزقه من حيث لا يحتسب

ما وقع فيه بغير لغة العرب

اختلف الأئمة في وقوع المعرّب في القرآن ، فالأكثرون ، ومنهم : الإمام الشافعي ، وابن جرير ، وأبو عبيدة ، والقاضي أبو بكر ، وابن فارس على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى : «قرآناً عربياً» وقوله تعالى : «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي» وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك . وقال أبو عبيدة : إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطيّة ، فقد أكبر القول ويقابل هذا القول ما جاء عن بعضهم بجواز وقوع ذلك وإن هناك ألفاظ غير عربية استعملها العرب وجرت مجرى الفصيح فوقع بها البيان ونزل القرآن .

وقال آخرون : كل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جداً ، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجلّة ، وقد خفي على ابن عباس معنى «فاطر» و «فاتح» .

قال الشافعى فى الرسالة : لا يحيط باللغة إلا نبى .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : والصواب عندى ، أن هـذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب . فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق ، ومال إلى هذا القول الجواليقى وابن الجوزى وآخرون —

وهذه أمثلة لتلك ألفاظ :

(أباريق) : حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية . وقال الجواليقى : الأبريق فارسى معرب ، ومعناه طريق الماء أو صب الماء على هينة .

(أبّ) : قال بعضهم : هو الحشيش بلغة أهل الغرب حكاه شيذلة .

(ابلعى) : أخرج ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه فى قوله تعالى : « ابلعى ماءك » قال : بالحبشية « أزدرديه » .

(اخلد) : قال الواسطى فى الإرشاد : أخلد إلى الأرض ، ركن بالعبرية .

(الأرائك) :حكى ابن الجوزى فى فنون الأفنان ، أنها السرر بالحبشية

(استبرق) : أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك أنه الديباج الغليظ بلغة الحجم .

(أسفار) : قال الواسطى فى الإرشاد : هى الكتب بالسريانية .

(إصرى » : قال أبو القاسم فى لغات القرآن معناه عهدى بالنَّبَطية .

(أكوب) : حكى ابن الجوزي أنها الأكواز بالنبطية .

(إناه) : نضجه بلسان أهل المغرب .

(أواه): أخرج أبوالشيخ بن حبان من طريق عكرمة ،عن ابن عباس قال : الأواه الموقن بلسان الحبشة .

(أواب) : أخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن شرحبيل قال : الأواب : المسبّح بلسان الحبشة .

(بطائنها) : قال شيدلة فى قوله تعالى : « بطائنها من استبرق » أى ظواهرها بالقبطية . وحكاه الزركشى .

قاعـــدة

الأصل توافق الضمائر فى المرجع حذراً من التشتيت ، ولهذا لما جوز بعضهم فى : [أن أقذفيه فى التابوت فأقذفيه فى أليم] أن الضمير فى الثانى للتابوت وفى الأول لموسى عابه الزمخشرى وجعله تنافرا مخرجاً للقرآن عن إعجازه ، فقال : والضمائر كلها راجعة إلى موسى ، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة ، لما تؤدى فيه من تنافر النظم الذى هو أم إعجاز القرآن ، ومر اعاته أهم ما يجب على المفسر .

وقال فى : [يؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه الضمائر لله تعالى . والمراد بتعزيزه تعزير دينه ورسوله ، ومن فرق الضمائر فقد أبعـد .

وقد يخرج عن هذا الأصل كما فى قوله : [ولا تستفت فيهم منهم أحداً] فإن ضمير « فيهم » لأصحاب الكهف و « منهم) لليهود قاله ثعلب والمبرد .

ومثله [ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا] قـال ابن عباس ساء ظناً بقومه ، وضاق ذرعاً بأضيافـه .

وقوله : [إلا تنصروه ..] الآية ، فيها اثنا عشر ضميراً ، كلها

للنبي صلى الله عليه وسلم . إلا ضمير « عليه » فلصاحبه ، كما نقله السهيلي عن الأكثرين ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم تنزل عليه السكينة وضمير « جعل » له تعالى .

وقد يخالف بين الضمائر حذراً من التنافر ، نحو : [منها أربعة حرم] الضمير للأثنى عشر ، ثم قال : [فلا تظلموا فيهن] أتى بصيغة الجمع لعوده على الأربعة

قاعـــدة

جمع العاقلات لا يعود عليه الضمير غالباً إلا بصيغة الجمع ، سواء كان للقلة أو للكثرة نحو : [والوالدات يرضعن] ، [والمطلقات يتربصن] وورد الإفراد فى قوله تعالى : [أزواج مطهرة] ولم يقل مطهرات .

وأما غير العاقل فالغالب فى جمع الكثرة الإفراد ، وفى القلة الجمع وقد اجتمعا فى قوله : [إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً] إلى أن قال : [منها أربعة حرم] فأعاد «منها » بصيغة الإفراد على الشهور ، وهى للكثرة ، ثم قال : [فلا تظلموا فيهن]فأعاده جمعاً على «أربعة حرم » وهى للقلة .

قاعـــدة

إذا اجتمع فى الضمائر مراعاة اللفظ والمعنى بدىء باللفظ ثم بالمعنى هذا هو الجادة فى القرآن ، قال تعالى : [ومن الناس من يقول] ثم قال : [وما هم بمؤمنين] أفرد أولا باعتبار اللفظ ، ثم جمع باعتبار المعنى ، وكذا [ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم] [ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا] .

قال الشيخ علم الدين العراقى : ولم يجىء فى القرآن البدآءة بالحمل على المعنى ، إلا فى موضع واحد ، وهوقوله : [وقالوا ما فى بطون هـذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا] فأنت « خالصاً » حملا على معنى « ما » ثم راعى اللفظ فذكر فقال [محرم] انتهى .

قاعـــدة

فى التعريف والتذكير

اعلم ان لكل منهما مقاماً لا يليق ، بالآخر أما التنكير فله أسباب :

أحدها : إرادة الوحدة ،نحو:[وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكون ورجلا سلما لرجل] .

الثانى : إرادة النوع ، نحو : [هذا ذكر] أى نوع من الذكر وعلى أبصارهم غشاوة] أى نوع غريب من الغشاوة . لا يتعارفه الناس ، بحيث غطى مالا يغطيه شىء من الغشاوات [ولتجدنهم أحرص النـاس على حياة] أى نوعم نها ، وهو الازدياد فى المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضى ولا على الحاضر .

ويحتمل الواحدة والنوعية معاً قوله : [والله خلق كل دابة من ماء] أى كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء ، وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف.

الثالث : التعظيم بمعنى أنه أعظم من أن يعين أو يعرف نحو : [فأذنوا بحرب] أى بحرب أى حرب .

الرابع : التكثير ، نحو : « أئن لنا لأجراً » أى وافراً جزيلا .

ويحتمل التعظيم والتكثير معاً ، نحو : [وإن يكذبوك فقـد كذبت رسل] أى رسل عظام ذوو عدد كثير .

الخامس : التحقير بمعنى انحطاط شأنه إلى حد لا يمكن أن يعرف نحو : [إن نظن إلا ظناً] أى ظناً حقيراً لا يعبأ به .

السادس : التقليل نحو : [ورضوان من الله أكبر] أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات ، لأنه رأس كل سعادة .

وأما التعريف فله أسباب ، فبالإضمار لأن المقام مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، وبالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداءً باسم مختص به ، نحو : [قل هو الله] [محمد رسول الله] أو لتعظيم أو أهانة ، فمن التعظيم ذكر يعقوب بلقبه إسرائيل لما فيه من المدح والتعظيم بكونه صفوة الله ، أو سرى الله ، على ما سيأتى فى معناه فى الألقاب .

ومن الاهانة : قوله : [تبت يدا أبى لهب) وفيه أيضاً نكتة أخرى وهى الكناية عن كونه جهنمياً .

وبالإشارة لتمييزه أكمل تمييز بإحضاره فى ذهن السامع حسا نحو : [هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه] وللتعريض بغباوة السامع حتى أنه لا يتميز له الشىء إلا بإشارة الحس ، وهذه الآية تصلح لذلك .

ولقصد تحقيره بالقرب ، كقول الكفار : [أهذا الذى يذكر آلهتكم] [أهذا الذى بعث الله رسولا] [ماذا أراد الله بهذا مثلا] وقوله تعالى : [وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب] .

ولقصد تعظيمه بالبعد ، نحو : [ذلك الكتاب لا ريب فيه] ذهاباً إلى بعد درجته . .

وقد يكون لإرادة العموم ، نحو : [إن الذين قالوا ربنا الله ثم

استقاموا] الآية ، [والذين جاهدوا وا فينا لنهدينهم سبلنا] .

[إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم] .

وللاختصار ، نحو : [لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا] أى قولهم إنه آ در ، إذ لوعد أسماء القائلين لطال وليس للعموم لأن بنى إسرائيل كلهم لم يقولوا فى حقه ذلك .

قاعـــدة أخرى
تتعلق بالتعريف والتنكير

إذا ذكر الإسم مرتين ، فله أربعة أحوال ، لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكره والثانى معرفة ، أو بالعكس ، فإن كانا معرفتين فالثانى هو الأول غالباً ، دلالة على المعهود الذى هو فى الأصل فى اللام أو الإضافة . نحو : [أهدنا الصراط المستقيم] صراط الذين أنعمت عليهم] [وفهم السيئات ومن تق السيئات]

وإن كانا نكرتين فالثانى غير الأول غالباً ، وإلا لكان المناسب هو التعريف بناءً على كونه معهوداً سابقاً ، نحو : [الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة] فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثانى الطفولية ، والثالث الشيخوخة

وقد اجتمع القسمان : فى قوله تعالى : [فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا] فالعسر الثانى هو الأول واليسر الثانى غير الأول ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الآية [لن يغلب عسر يسرين] .

وإن كان الأول نكرة والثانى معرفة ، فالثانى هو الأول حملا على العهد ، نحو : [أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول]

[فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة] ، [إلى صراط مستقيم صراط الله] .

[ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل] .

وإن كان الأول معرفة والثانى نكرة ، فلا يطلق القول بل يتوقف على القرائن ، فتارة تقوم قرينة على التغاير ، نحو : [ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثو غير ساعة] .

وتارة تقوم قرينة على الاتحاد ، نحو : [ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً] .

تنبيه

قال الشيخ بهاء الدين فى عروس الأفراح وغيره : إن الظاهر أن هذه القاعدة غير محررة فإنها منتقضة بآيات كثيرة منها فى القسم الأول [هل جزاء الإحسان إلا الإحسان] فإنهما معرفتان والثانى غير الأول [الحر بالحر . . .] الآية [هل أتى على الإنسان حين من الدهر] ثم قال : [إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج] فإن الأول آدم والثانى ولده [وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به] فإن الأول القرآن والثانى التوراة والإنجيل .

ومنها فى القسم الثانى :

[وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله] ، [يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير] فإن الثانى فيهما هو الأول وهما نكرتان .

ومنها فى القسم الثالث :

[أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير] ، [ويؤت كل ذى فضل

فضله] ، [ويزدكم قوة إلى قوتكم] ، [ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم] [زدناهم عذاباً فوق العذاب] ، [وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن] فإن الثانى فيها غير الأول .

وأقول : لا انتقاض بشيء من ذلك عند التأمل فإن اللام فى الاحسان للجنس فيما يظهر ، وحينئذ يكون فى المعنى كالنكرة ، وكذا آية النفس والحر بخلاف آية العسر ، فان « أل » فيها إما للعهد أو للاستغراق كما يفيده الحديث ، وكذا آية الظن ، لا نسلم فيها أن الثانى فيها غير الأول ، بل هو عينه قطعاً ، إذ ليس كل ظن مذموماً ، كيف وأحكام الشريعة ظنية ، وكذا آية الصلح ، لا مانع من أن يكون المراد منها الصلح المذكور وهو الذى بين الزوجين ، واستحباب الصلح فى سائر الأمور مأخوذ من السنة ومن الاية بطريق القياس ، بل لا يجوز القول بعموم الآية ، وأن كل صلح خير ، لأن ما أحل حراماً من الصلح ، أو حرم حلالا فهو ممنوع وكذا آية القتال ليس الثانى فيها عين الأول بلا شك لأن المراد بالأول المسئول عنه القتال الذى وقع فى سرية بن الحضرمى سنة اثنتين من الهجرة لأن سبب نزول الآية ، والمراد بالثانى جنس القتال لا ذاك بعينه . وأما آية [وهو الذى فى السماء إله] ، ففقد أجاب عنها الطيبى : أنها من باب التكرير ، لإفادة أمر زائد ،بدليل تكرير ذكر الرب فيما قبله من قوله : [سبحان رب السموات والأرض رب العرش] ووجهه الأطناب فى تنزيهه تعالى عن نسبة الولد إليه ، وشرط القاعدة ألا يقصد التكرير .

قاعـــدة

فى الإفراد والجمـــع

من ذلك السماء والأَرض ، حيث وقع فى القرآن ذكر الأَرض فإنها مفردة ، ولم تجمع ، بخلاف السموات لثقل جمعها وهو أَرضون ولهـذا لما أَريد ذكر جميع الأَرضين قال [ومن الأَرض مثلهن] وأَما السماء فذكرت تارة بصيغة الجمع ، وتارة بصيغة الإفراد لنكت تليق بذلك المحل ، لما أَوضحته فى أَسرار التنزيل والحاصل أَنه حيث أَريد العدد أَتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، نحو : [سبح لله ما فى السموات] أَى جميع سكانها على كثرتهم ،[تسبح لله ما فى السموات] أَى كل واحد على اختلاف عددها .

وحيث أَريد الجهة أَتى بصيغة الأَفراد ، نحو : [وفى السماء رزقكم] [أَأَمنتم من فى السماء أَن يخسف بكم الأَرض] أَى من فوقكم .

ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة ، فحيث ذكرت فى سياق الرحمة جمعت ، أَو فى سياق العذاب أَفردت .

أَخرج ابن أَبى حاتم وغيره ، عن أَبى بن كعب ، قال : كل شىء فى القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شىء فيه من الريح فهو عذاب » ولهذا ورد فى الحديث :« اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » وذكر فى حكمه ذلك أَن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهابات والمنافع ،وإذا هاجت منها ريح أَثير لها من مقابلها ما يكسر سورتها ، فينشأَ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكانت فى الرحمة رياحاً ، وأَما فى العذاب فإنها تأَتى من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع وقد خرج عن هذه القاعدة وقوله تعالى فى سورة يونس : [وجرين بهم بريح

طيبة] وذلك لوجهين : لفظى وهو المقابلة فى قوله : [جاءتها ريح عاصف] ورب شيء يجوز فى المقابلة ولا يجوز استقلالا ، نحو[ومكروا ومكر الله [. ومعنوى ، وهو أن تمام الرحمة هناك إنما تحصيل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد ، فإن اختلفت عليها الريح كان سبب الهلاك والمطلوب هنا ريح واحدة ولهذا أكد هذا المعنى بوصفها بالطيب ، وعلى ذلك أيضاً جرى قوله : [إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد] .

وقال ابن المنير : إنه على القاعدة ، لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السنين . ومن ذلك إفراد النور وجمع الظلمات سبيل الحق وجمع سبل الباطل فى قوله تعالى [ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] لأن طريق الحق واحدة ، وطريق الباطل متشعبة متعددة ، والظلمات بمنزلة طريق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، بل هما هما ولهذا وحّد « ولى المؤمنين » وجمع «أولياء الكفار » لتعددهم فى قوله تعالى : [الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات] .

ومن ذلك إفراد النار حيث وقعت ، والجنة وقعت مجموعة ومفردة، لأن الجنان مختلفة الأنواع ، فحسن جمعها ، والنار مادة واحدة ، ولأن الجنة رحمة والنار عذاب ، فناسب جمع الأولى وإفراد الثانية على حد الرياح والريح .

ومن ذلك إفراد الصديق وجمع الشافعين فى قوله تعالى : [فمالنا من شافعين ولا صديق حميم] وحكمته كثرة الشفعاء فى العادة ، وقلة الصديق .

قال الزمخشرى : ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم . نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق فأعز من بيض الأنوق . ومن ذلك إفراد السمع وجمع البصر ، لأن السمع غلب عليه المصدرية ، فأفرد بخلاف البصر ، فإنه اشتهر فى الجارحة ولأن متعلق السمع الأصوات ، وهى حقيقة واحدة ومتعلق البصر الألوان والأكوان ،وهى حقائق مختلفة ، فأشار فى كل منها إلى متعلقه .

ومن ذلك مجىء المشرق والمغرب بالإفراد والتثنية والجمع فحيث إفرد فاعتبار اً للجهة ، وحيث ثنيا فاعتبار المشرق الصيف والشتاء ومغربهما ، وحيث جمعا فاعتبار اً لتعدد المطالع فى كل فصل من فصلى السنة .

قاعدة فى السؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، إذا كان السؤال متوجهاً ، وقد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال ، تنبيهاً على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، ويسميه السكاكى الأسلوب الحكيم .

وقد يجىء الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه فى السؤال ، وقد يجىء أنقص لاقتضاء الحال ذلك .

مثال ما عدل عنه قوله تعالى : [يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج] سألوا عن الهلال : لمَ يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلىء ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما

بدأ ، فأجيبو ببيان حكمة ذلك ، تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه .

وهذا إذا قلنا إن سؤالهم كان كذلك إذ يحتمل أنهم سألوا عن الحكمة وحينئذ فالمطابقة ظاهرة . .

ومثال الزيادة فى الجواب قوله تعالى : [الله ينجيكم منها ومن كل كرب] فى جواب [من ينجيكم من ظلماو البر والبحر] . وقول موسى [هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى] فى جواب [وما تلك بيمينك يا موسى] زاد فى الجواب استلذاذاً بخطاب الله تعالى .

وقول قوم إبراهيم : [نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين] فى جواب [ما تعبدون [زادوا فى الجواب إظهار اللابتهاج بعبادتها والاستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل .

فى معرفة الوجوه والنظائر

فالوجوه اللفظ المشترك الذى يستعمل فى عدة معان كلفظ الأمة والنظائر كالألفاظ المتواطئة .

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل ، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر .

أخرج ابن سعد وغيره عن أبى الدرداء موقوفاً : «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة » .

وأشار آخرون إلى أن المراد به استعمال الإشارات الباطنة ، وعدم الاقتصار على التفسير الظاهر .

وأخرج ابن سعدمن طريق عكرمة ، عن ابن عباس أن على بن أبى طالب أرسله إلى الخرارج ، فقال : « اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم بالقرآن ، فإنه ذو وجوه ، ولكن ، خاصمهم بالسنة .

وهذه عيون من أمثلة هذا النوع ، من ذلك :

الهدى : يأتى على سبعة عشر وجهاً :

بمعنى الثبات : «إهدنا الصراط المستقيم » [الفاتحة] .

والبيان : « أولئك على هدى من ربهم » [البقرة ٥]

والدين : « إن الهدى هدى الله » [آل عمران ٧٣] .

والإيمان : ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » [مريم ٧٤]

والدعاء : « ولكل قوم هاد»(١) « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا(٢)

وبمعنى الرسل والكتب : «فإما يأتينكم منى هدى » (٣) .

والمعرفة : «وبالنجم هم يهتدون » [النحل ١٦] .

وبمعنى النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى » [البقرة ١٥٩] .

وبمعنى القرآن : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » [النجم ٢٣] .

والتوراة : « ولقدآتينا موسى الهدى » [غافر ٥٣] .

والاسترجاع : « وأولئك هم المهتدون » [البقرة ١٥٧] .

والحجة : « لا يهدى القوم الظالمين » بعد قوله تعالى : « ألم تر إلى الذج حاج إبراهيم فى ربه » أى لا يهديهم حجة [البقرة (٤)] .

والتوحيد : « إن تتبع الهدى معك » [القصص ٥٧] .

والسنة : « فبهداهم اقتده » [الأنعام ٩٠] « وإنا على آثارهم

(١) الرعد ٧ (٢) الأنبياء ٧٣ (٣) البقرة ٣٨ (٤) البقرة ٢٥٨

مهتدون » [الزخرف ٢٢] .

والإصلاح : « وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » [يوسف ٥٢]

والإلهام : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » أى ألهمه المعاش [طه ٥٠] .

والتوبة : « إنا هدنا إليك » [الأعراف ١٥٢] .

والإرشاد : « أن يهدى سواء السبيل » [القصص ٢٢] .

ومن ذلك : « السوء » يأتى على أوجه :

الشدة : «الخزى اليوم والسوء على الكافرين » [النحل ٢٧].

والعقر : « ولا تمسها بسوء » [الأعراف ٧٣] .

والزنى : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » [يوسف ٢٥] [يوسف ٢٥ [« وما كان أبوك امرأ سوء » [مريم ٢٨]

والبرص : بيضاء من غير سوء » [القصص ٣٢]

والشرك : « ما كنا نعمل من سوء » (النحل ٢٨]

والقتل والهزيمة « لم يمسهم سوء » [آل عمران ١٧٤] .

ومن ذلك : « الصلاة » تأتى على أوجه :

الصلوات الخمس : « يقيمون الصلاة» [البقرة ٣] .

وصلاة العصر : « تحبسونهما من بعد الصلاة » [المائدة ١٠٤]

وصلاة الجمعة : «إذا نودى للصلاة » [الجمعة ٥٢] .

والجنازة : « ولا تصل على أحد منهم » [التوبة ٨٤]

والدعاء : وصل عليهم » [التوبة ١٠٣]

والدين : « أصلواتك تأمرك » [هود ٧٧]

والقراءة : « ولا تجهر بصلاتك » [الاسراء ١١٠]

والرحمة والاستغفار : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » [الأحزاب ٥٤] .

ومن ذلك : «الرحمة» وردت على أوجه :

الإسلام : «يختص برحمته من يشاء» [آل عمران ٧٤].

والإيمان : « وآتانى رحمة من عنده » [هود ٢٨]

والجنة : «ففى رحمة الله هم فيها خالدون» [آل عمران ١٠٧]

والمطر : « بشرا بين يدى رحمته » [الأعراف ٥٧]

ومن ذلك : «الفتنة» وردت على أوجه :

الشرك : « والفتنة أشد من القتل» [البقرة ١٩١] .

والإضلال : «ابتغاء الفتنة » [آل عمران ٧]

والمقتل : « أن يفتنكم الذين كفروا » [النساء ١٠١]

والمعذرة : « ثم لم تكن فتنتهم » [الأنعام ٢٣]

والقضاء : « إن هى إلا فتنتك » [الأعراف ١٥٥] .

والمرض : « يفتنون فى كل عام » [التوبة ١٢٦]

والعبرة : « لا تجعلنا فتنة » [يونس ٨٥] .

ومن ذلك : « الروح » ورد على أوجه :

الأمر : «وروح منه » [النساء ١٧١]

والوحى : «ينزل الملائكة بالروح » [النحل ٢] .

والقرآن : « أوحينا إليك روحاً من أمرنا » [الشورى ٥٢].

وجبريل : « فأرسلنا إليها روحنا » [مريم ١٧]

وروح البدن : « ويسألونك عن الروح » [الإسراء ٨٥]

ومن ذلك : « الذكر » ورد على أوجه :

ذكر اللسان : «فاذكروا الله كذكركم آباءكم » [البقرة ٢٠٠]

والحفظ : « واذكروا ما فيه » [البقرة ٤٣]

والطاعة والجزاء : « فاذكرونى أذكركم » [البقرة ١٥٢]

والحديث : « اذكرنى عند ربك » أى حدثه بحالى [يوسف٤٢]

والقـرآن : «ومن أعرض عن ذكرى » [طه ١٢٤]

والشرف : « وإنه لذكر لك » [الزخرف ٤٤]

والعيب : « أهذا الذى يذكر آلهتكم » [الأنبياء ٣٤]

واللوح المحفوظ : « من بعد الذكر » [الأنبياء] ١٠٥]

والثنـاء : « وذكر الله كثيراً » [الأحزاب] ٢١]

والصلاة : « ولذكر الله أكبر » [العنكبوت ٩٥] .

فوائـــد

قال ابن فارس فى كتاب الأفراد : كل ما فى القرآن من ذكرالأسف فمعناه الحزن إلا «فلما آسفونا» فمعناه أغضبونا .

وكل ما فيه من ذكر : «البروج» فهى الكواكب إلا : «ولو كنتم فى بروج مشيدة » فهى القصور الطوال الحصينة .

وكل ما فيه من ذكر : « البر والبحر » فالمراد بالبحر الماء ، وبالبر التراب اليابس ، إلا «ظهر الفساد فى البر والبحر » فالمراد به البرية والعمران .

وكل ما فيه من « البعل » فهو الزوج إلا «أتدعون بعلا» فهو الصنم .

وكل ما فيه من « الدحض» فالباطل إلا «فكان من المدحضين» فمعناه من المقروعين .

وكل ما فيه من «الرجم» فهو القتل إلا « لأرجمنك » فمعناه لأشتمنك و « رجماً بالغيب » ظناً .

وكل «شهيد» فيه غير القتلى فمن يشهد فى أمور الناس إلا : « وادعوا شهداءكم » فهو شركاؤهم .

وكل ما فيه من « أصحاب النار » فأهلها إلا « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » فالمراد خزنتها .

وكل « نبإ» فيه خبر إلا «فعميت عليهم الأنباء » فهى الحجج .

وقال ابن خالويه : ليس فى القرآن « بعد » بمعنى «قبل» إلا حرف واحد : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر » .

وقال مغلطاى فى كتاب الميسر : قد وجدنا حرفاً آخر وهو قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » .

قال أبو موسى فى كتاب المغيث : معناه هنا «قبل» لأنه تعالى خلق الأرض فى يومين ، ثم استوى إلى السماء ، فعلى هذا خلق الأرض قبل خلق السماء . انتهى .

وقد تعرض النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون بشىء من هذا النوع .

فأخرج الإمام أحمد فى مسنده ، وابن أبى حاتم وغيرهما من طريق دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة هذا إسناده جيد وابن حبان يصححه .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : « كل شىء فى القرآن أليم » فهو الموجع .

وأخرج من طريق علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : كل شىء فى القرآن «قتل» فهو لعن .

وأخرج من طريق الضحاك عن ابن عباس ، قال : كل شىء فى كتاب الله من « الزَّجر » يعنى به العذاب .

وقال الفريابى : حدثنا قيس ، عن عمار الذهبى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « كل تسبيح فى القرآن صلاة ، وكل سلطان فى القرآن حجة » .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كل شىء فى القرآن « الدين » فهو الحساب .

وأخرج ابن أبى حاتم وغيره عن أبىّ بن كعب ، قال : كل شىء فى القرآن من « الرياح » فهى رحمة ، وكل شىء فيه من « الريح » فهو عذاب وأخرج عن أبى مالك ، قال : « وراء » فى القرآن «أمام » كله غير حرفين «فمن ابتغى وراء ذلك» يعنى سوى ذلك ، وأحل لكم ما وراء ذلكم » يعنى سوى ذلكم .

وأخرج عن أبى بكر بن عياش ، قال : ما كان «كِسفا » فهو عذاب وما كان « كِسَفا » فهو قطع السحاب .

وأخرج ابن جرير عن أبى روق ، قال : كل شىء فى القرآن «جعل» فهو خلق .

وفى صحيح البخارى قال سفيان بن عيينة : ما سمى الله المطر فى القرآن إلا عذاباً وتسميه العرب الغيث .

قلت : استثنى من ذلك « إن كان بكم أذى من مطر » فإن المراد به الغيث قطعاً .

قال أبو عبيدة : إذا كان فى العذاب فهو « أمطرت » وإذا كان فى الرحمة فهو « مطرت » .

وأخرج عن سفيان بن عيينة ، قال : كل شىء فى القرآن « وما يدريك » فلم يخبر « وما أدراك » فقد أخبر به .

معـــرفة إعرابه

أخرج أبو عبيد فى فضائله ، عن عمر بن الخطاب ، قال : [تعلموا اللحن والفرائض والسنن كما تعلمون القرآن] .

وأخرج عن يحيى بن عتيق ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ، ويقيم بها قراءته قال حسن : يا ابن أخى فتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعى بوجهها ، فيهلك فيها . وعلى الناظر فى كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره ، النظر فى الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلا أو مفعولا ، أو فى مبادىء الكلام أو فى جواب ، إلى غير ذلك .

ويجب عليه مراعاة أمور :

(أحدها : وهو أول واجب عليه أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أم مركباً قبل الاعراب ،فإنه فرع المعنى ، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور إذا قلنا بأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

قال ابن هشام : وقد زلّت أقدام كثير من المعربين راعوا فى الاعراب ظاهر اللفظ ولم ينظروا فى موجب المعنى ، من ذلك قوله : [أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء] ، فإنه يتبادر إلى الذهن عطف « أن نفعل » على « أن نترك » وذلك باطل لأنه

لم يأمرهم أن يفعلوا فى أموالهم ما يشاؤن ، وإنما هو عطف على « ما » فهو معمول للترك ، والمعنى أن نترك أن نفعل وموجب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين ، وبينهما حرف العطف .

الثانى : أن يراعى ما تقتضيه الصناعة ، فربما راعى المعرب وجهاً صحيحاً ولا ينظر فى صحته فى الصناعة فيخطىء .

ومن ذلك قول بعضهم : [وثمودا فما أبقى] إن ثمودا مفعول مقدم وهذا ممتنع لأن لـ« ما » النافية الصدر ، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها بل هو معطوف على « عادا » أو على تقدير : [وأهلك ثمودا] .

وكذا قول غيره فى [ملعونين أينما ثقفوا] إنه حال من معمول [ثقفوا وأخذوا] باطل ، لأن الشرط له الصدر ، بل هو منصوب على الذم .

الثالث : أن يتجنب الأمور البعيدة ، والأوجه الضعيفة ، واللغات الشاذة .

ويخرج على القريب والقوى والفصيح ، فإن لم يظهر فيه إلا الوجه البعيد فله عذر ، وإن ذكر الجميع لقصد الإعراب والتكثير فصعب شديد ، أو لبيان المحتمل وتدريب الطالب فحسن فى غير ألفاظ القرآن ، أما التنزيل فلا يجوز أن يخرّج إلا على ما يغلب على الظن إرادته ، فإن لم يغلب شىء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف ومن ثم خطّىء من قال فى : [فلا جناح عليه أن يطوّف] إن الوقف على [جناح] و [عليه] إغراء ، لأن إغراء الغائب ضعيف .

ومن قال فى : [تماماً على الذى أحسنُ] بالرفع : إن [أصله]

أحسنوا ، فحذفت الواو اجتزاء عنها بالضمة ، لأن باب ذلك الشعر ؛ والصواب تقدير مبتدأ ، أى هو أحسن .

من قال فى [ليذهب عنكم الرجس أهل البيت] : إنه منصوب على الاختصاص لضعفه بعد ضمير المخاطب ، والصواب أنه منادى .

الرابع : أن يستوفى جميع ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة فتقول فى نحو [سبح اسم ربك الأعلى] يجوز كون [أعلى] صفة للرب وصفة للإسم .

وفى نحو [هدى للمتقين ، الذين] : يجوز كون [الذين] تابعاً ومقطوعاً إلى النصب باضمار [أعنى] أو [أمدح] وإلى الرفع بإضمار [هو] .

الخامس : أن يراعى الرسم ، ومن ثم خطّى ء من قال فى [سلسبيلا] إنها جملة أمرية ، أى سل طريقاً موصلة إليها ، لأنها لو كانت كذلك لكتبت مفصولة .

ومن قال فى : [إن هذان لساحران] ، إنها ، إن وإسمها ، أى إن القصة وذان مبتدأ خبره لساحران ، والجملة خبر إن ، وهو باطل برسم [أن] منفصلة وهذان متصلة .

ومن قال فى : [أيهم أشد [إن هم أشد] مبتدأ وخبر ، وأى مقطوعة عن الإضافة ، وهو باطل برسم [أيهم] متصلة .

ومن قال فى : [وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون] إن [هم] ضمير رفع مؤكد للواو ، وهو باطل برسم الواو فيهما بلا ألف بعدها ؛ والصواب أنه مفعول .

السادس: أن يجتنب إطلاق لفظ الزائد فى كتاب الله تعالى ، فإن

الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له ، وكتاب الله منزه عن ذلك ، ولذا فرّ بعضهم إلى التعبير بدله بالتأكيد ، والصلة ، والمفحم .

وقال ابن الخشاب : اختلف فى جواز إطلاق لفظ الزائد فى القرآن فالأكثرون على جوازه نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم ولأن الزيادة بإزاء الحذف هذا للاختصار والتخفيف،وهذا للتوكيد . والتوطئة ومنهم من أبى ذلك وقال :هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصها ، فلا أقضى عليها بالزيادة .

قال : والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل لأنه عبث ، فتعين أن إلينا به حاجة ، ولكن الحاجة إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد ، فليست الحاجة إلى اللفظ الذى عده هؤلاء زيادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه . انتهى .

تنبيهـــات :

الأول : قد يتجاذب المعنى والإعراب الشيء الواحد ، بأن يوجد فى الكلام أن المعنى يدعو إلى أمر والإعراب يمنع منه والمتمسك به صحة المعنى ويؤول لصحة الإعراب ، وذلك كقوله تعالى : [إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر] فالظرف الذى هو «يوم» يقتضى المعنى أنه يتعلق بالمصدر ، وهو «رجع » أى أنه على رجعه فى ذلك اليـوم لقادر ، لكن الإعراب يمنع منه لعدم جواز الفصل بين المصدر ومعموله ؛ فيجعل العامل فيه فعلا مقدراً دلَّ عليه المصدر .

وكذا : [أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون] فالمعنى يقتضى تعلق « إذ » بالمقت ، والإعراب يمنعه للفصل المذكور فيقدر له فعـل يدل عليـه .

الثانى : قد يقع فى كلامهم : هذا تفسير معنى ، وهذا تفسير إعراب والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لابد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية ، وتفسير المعنى لا تضره مخالفة ذلك .

الثالث : قال أبو عبيد فى فضائل القرآن : حدثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال : سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : [والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة] وعن قوله تعالى : [إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون] فقالت يا ابن أخى هذا عمل الكتاب ، أخطئوا فى الكتاب ، هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين .

وقال : حدثنا حجاج ، عن هارون بن موسى ، أخبرنى الزبير ابن الحريث عن عكرمة ، قال : لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها ، فإن العرب ستغيرها ـ أو قال ستعربها ـ بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف ، أخرجه ابن الأنبارى فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان وابن أشته فى كتاب المصاحف .

ثم أخرج ابن الأنبارى نحوه ، من طريق عبد الأعلى بن عبد الله ابن عامر وابن أشته نحوه من طريق يحيى بن يعمر .

وأخرج من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير ، أنه كان يقرأ [والمقيمين الصلاة] ويقول : هو لحن من الكاتب .

وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولا أنهم يلحنون فى الكلام فضلا عن القرآن ، وهم الفصحاء ثم كيف يظن بهم ثانياً

فى القرآن الذى تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه ! ثم كيف يظن ثالثاً اجتماعهم على الخطإ وكتابته ! ثم كيف يظن رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه ! ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره ، ثم كيف يظن أن القرآءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ ، وهو مروى بالتواتر خلفاً عن سلف ! هذا مما يستحيل عقلا وشرعاً وعادة .

وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :

أظهرها : أن ذلك لا يصح عن عثمان ، فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع ، ولأن عثمان جعل للناس إماماً يقتدون به ، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ، فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار ، فكيف يقيمه غيرهم ؟ وأيضاً فإنه لم يكتب مصحفاً واحداً ، بل كتب عدة مصاحف ، فإن قيل : إن اللحن وقع فى جميعها ، فبعيد اتفاقهم على ذلك ، أو فى بعضها فهو اعتراف بصحة البعض ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان فى مصحف دون مصحف ولم تأت المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة وليس ذلك بلحن .

فائــدة

فيما قرىء بثلاثة أوجه : الإعراب أو البناء أو نحو ذلك . قد رأيت تأليفاً لطيفاً لأحمد بن يوسف بن مالك الرُّعينى سماه « تحفة الأقران فيما قرىء بالتثليث من حروف القرآن » .

[الحمد لله] ، قرىء بالرفع على الإبتداء والنصب على المصدر والكسر على اتباع الدال ، فى حركتها .

[رب العالمين] ، قرىء بالجر على أنه نعت ، وبالرفع على القطع بإضمار مبتدأ ، وبالنصب عليه بإضمار فعل ، أو على النداء .

[الرحمن الرحيم] قرىء بالثلاثة .

[اثنتا عشرة عيناً] قرىء بسكون الشين وهى لغة تميم ، وكسرها وهى لغة الحجاز ، وفتحها وهى لغة بلى .

[بين المرء] قرىء بتثليث الميم لغات فيها .

[ذرية بعضها من بعض] قرىء بتثليث الذال .

[واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام] قرىء بالنصب عطفاً على لفظ الجلالة ، وبالجر عطفاً على ضمير «به» وبالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والأرحام مما يجب أن تتقوه وأن تحتاطوا لأنفسكم فيه .

[لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر] قرىء بالرفع صفة لـ « لقاعدون» وبالجر صفة لـ « لمؤمنين » وبالنصب على الاستثناء .

[وامسحوا برؤسكم وأرجلكم] قرىء بالنصب عطفاً على الأيدى وبالجر على الجوار أو غيره ، وبالرفع على الابتداء والخبر محذوف دل عليه ما قبله .

فى قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتهـــا
قاعـــدة فى الضمائر

مرجع الضمير :

لابد له من مرجع يعود إليه ، ويكون ملفوظاً به سابقاً مطابقاً بـه نحو : [ونادى نوح ابنـه] [وعصى آدم ربه] [إذا أخرج يده لم يكد يراها] ، أو متضمناً له نحوه : [أعدلوا هو أقرب] .

أو دالا عليه بالالتزام، نحو : [إنا أنزلنـاه] أى القرآن ، لأن الإنزال يدل عليه التزاماً.[فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليـه] فـ« عفى » يستلزم عافياً أعيد عليه الهاء من « إليه » أو متأخراً لفظاً لا رتبة مطابقاً نحوه : [فأوجس فى نفسه خيفة موسى] ، [ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون] ، [فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان] .

وقـد يعود على لفظ المذكور دون معناه ، نحو : [وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره [أى عمر معمر آخر .

وقـد يعود على لفظ شىء والمراد به الجنس من ذلك الشىء ، قال الزمخشرى كقوله : [إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما] أى بجنسى الفقير والغنى لدلالة [غنياً أو فقيراً] على الجنسين ولو رجع إلى المتكلم به لوحده .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين ، نحو : [يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان] وإنما يخرج من أحدهما .

وقـد يجىء الضمير متصلا بشىء وهو لغيره ، نحو [ولقـد خلقنا

الإنسان من سلالة من طين] يعنى آدم ، ثم قال : [ثم جعلناه نطفة] فهذه لولده ، لأن آدم لم يخلق من نطفة .

وهذا هو باب الاستخدام ، ومنه [لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم] ثم قال : : [قد سألها] أى أشياء أخرى مفهومة من لفظ « أشياء » السابقة .

وقد يعود الضمير على ملابس ما هو له ، نحو : [إلا عشية أوضحناها] أى ضحى يومها ، لاضحى العشية نفسها ، لأنه لاضحى لها .

المحكم والمتشابه

قال تعالى : [هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات] وقد حكى ابن حبيب النيسابورى فى المسألة ثلاثة أقوال :

أحدها : أن القرآن كله محكم ، لقوله تعالى : [كتاب أحكمت آياته] .

الثانى : كله متشابه ، لقوله تعالى : [كتاباً متشابهاً مثانى] .

والثالث — وهو الصحيح — انقسامه إلى محكم ومتشابه ، للآية المصدر بها .

والجواب عن الآيتين أن المراد بإحكامه اتقانه وعدم تطرق النقض والاختلاف إليه ، وبتشابهه كونه يشبه بعضه بعضاً فى الحق والصدق والاعجاز .

وقد اختلف فى تعيين المحكم والمتشابه على أقوال :

فقيل : المحكم ما عرف المراد منه ، إما بالظهور وإما بالتأويل

والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة فى أوائل السور ،

وقيل: المحكم ما وضح معناه ، والمتشابه نقيضه .

وقيل : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً .

وقيل : المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان قاله الماوردى . وقيل المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره .

وقيل : المحكم ما تأويله تنزيله والمتشابه ما لا يدرى إلا بالتأويل.

وقيل : المحكم ما لم تتكرر ألفاظه ومقابله المتشابه .

وقيل : المحكم الفرائض والوعد والوعيد ، والمتشابه القصص والأمثال .

وأخرج ابن أبى حاتم ، من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به . والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ، قال :

المحكمات : ما ينسخ منه . والمتشابهات : ما قد نسخ .

وأخرج ابن أبى حاتم،عن مقاتل بن حبان ، قال : المتشابهات فيما بلغنا : آلم ، وآلمص ، وآلمر ، وآلر .

قال ابن أبى حاتم: وقد روى عن عكرمة وقتادة وغيرهما أن المحكم الذى يعمل به ، والمتشابه الذى يؤمن به ولا يعمل به .

فصـــل

اختلف : هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه ، أولا يعلمه إلا الله على القولين : منشؤهما الاختلاف فى قوله : [والراسخون فى العلم [هل هو معطوف و [يقولون] حال ، أو مبتدأ خبره [يقولون] والواو استئناف ، وعلى الأول طائفة يسيرة ، منهم مجاهد ، وهو رواية عن ابن عباس ، فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله : [وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم] ، قال : أنا ممن يعلم تأويله .

وأما الأكثرون من الصحابه والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة ، فذهبوا إلى الثانى ، وهو أصح الروايات عن ابن عباس

قال الحافظ السيوطى : ويدل لصحة مذهب الأكثرين ، ما أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره والحاكم فى مستدركه ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ :[وما يعلم تأويله إلا الله] ويقول الراسخون فى العلم آمنا به يقولون فهذا يدل على أن الواو للاستئناف ، لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة ، فأقل درجاتها أن يكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن ، فيقدم كلامه فى ذلك على من دونه ، ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعى المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة ، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله ، وسلموا إليه كما مدح الله المؤمنين بالغيب ، وحكى الفَرَّاء أن فى قراءة أبى بن كعب أيضاً : [ويقول الراسخون] .

وأخرج ابن أبى داود فى المصاحف من طريق الأعمش ، قال فى قراءة ابن مسعود [وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون أمنا به] .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة ، قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : [هو الذى أنزل عليك الكتاب] إلى قوله [أولوا الألباب] قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » .

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خصال : أن يكثرلهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب ، فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله : وما يعلم تأويله إلا الله » الحديث .

وأخرج ابن أبى حاتم أيضاً عن عائشة ، قالت : « كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمتشابهه ، ولا يعلمونه » .

وأخرج الدارمى فى مسنده ، عن سليمان بن يسار ، أن رجلا يقال له صبيغ ، قدم المدينة ، فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعدّله عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ قال أنا عبدالله ابن صبيغ ، فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين ، فضربه حتى دمى رأسه ، وفى رواية عنده : فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة ، ثم تركه حتى برأ ، ثم عاد له ، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود ، فقال إن كنت تريد قتلى فاقتنى قتلا جميلا فأذن له إلى أرضه ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى ألا يجالسه أحد من المسلمين .

فهذه الأحاديث والآثار تدل على أن المتشابه مما لا يعلمه إلا الله ، وأن الخوض فيه مذموم .

وقد أشار بعضهم إلى حكمة وجود المتشابه فى القرآن مع العجز عن معرفته فقال : العقل مبتلى باعتقاد حقية المتشابه كابتلاء البدن

بأداء العبادة كالحكيم إذا صنف كتاباً أجمل فيه أحياناً ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه ، وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره .

وقيل : لو لم يبتل العقل الذى هو أشرف البدن ، لاستمر العالم فى أبهة العلم على التمرد ، فبذلك يستأنس إلى التذلل بعز العبودية ، والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استدلالاً واعتراافاً بقصورها ، وفى ختم الاية بقوله تعالى : [وما يذكر إلا أولوا الألباب] تعريض للزائغين ،ومدح للراسخين ، يعنى من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه ، فليس من أولى العقول ، ومن ثم قال الراسخون : [ربنا لا تزغ قلوبنا] إلى آخر الآية ، فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللدنى ، بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفسانى .

وإذا علمت أن الخوض فى المتشابه مذموم فلا بد من تحديد المتشابه ، وهذا هو الأولى ليعلم المذموم فيجتنب ، ولذلك قال الخطابى : المتشابه على ضربين :

أحدهما : ما إذا رد إلى المحكم واعتبر به عرف معناه .

والآخر : ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته ، وهو الذى يتبعه أهل الزيغ فيطلبون تأويله ولا يبلغون كنهه ، فيرتابون فيه فيفتتنون .

فصـــل

من المتشابه آيات الصفات ، ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد ، نحو : [الرحمن على العرش استوى] ، [كل شىء هالك إلا وجهه] [ويبقى

وجه ربك] ، [ولتصنع على عينى] [يد الله فوق أيديهم ،] [والسموات مطويات بيمينه] .

وجمهور أهل السنة منهم وأهل الحديث على الإيمان بها ، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها .

وذهبت طائفة من أهل السنة على أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى ، وهذا مذهب الخلف . وكان إمام الحرمين يذهب إليه ، ثم رجع عنه ، فقال فى الرسالة النظامية : الذى نرتضه دينا ، وندين الله به عقدا ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها .

وقال ابن الصلاح : على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها .

وتوسط ابن دقيق العيد فقال : إذا التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيداً توقفنا عنه ، وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه ، قال : وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب ، قلنا به من غير توقيف كما فى قوله تعالى : [ياحسرتى على ما فرط فى جنب الله] فنحمله على حق الله وما يجب له .

ومن المتشابه أوائل السور ، والمختار فيها أيضاً أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى ، أخرج ابن المنذر وغيره ، عن الشعبى ، أنه سئل عن فواتح السور ، فقال : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور .

وخاض فى معناها آخرون ، فأخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق

أبي الضحى ، عن ابن عباس فى قوله : [آلم] قال : أنا الله أعلم وفى قوله : [آلمص] ، قال : أنا الله أفصِل ، وفى قوله : [الر] أنا الذى أرى .

فى مقـــدمه ومؤخره

وهو قسمان :

الأول : ما أشكل معناه . بحسب الظاهر ، فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير ، اتضح . وهو جدير أن يفرد بالتصنيف وقد تعرض السلف لذلك فى آيات :

فأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة فى قوله تعالى : [ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا] ، قال هذا من تقاديم الكلام ، يقول : [لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة] .

وأخرج عنه أيضاً فى قوله تعالى : [ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى] ، قال : هذا من تقاديم الكلام يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً .

وأخرج عن مجاهد فى قوله تعالى : [أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيماً] ، قال ، : هذا من التقديم والتأخير ، [أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً] .

وأخرج عنقتادة فى قوله تعالى:[إنى متوفيك ورافعك إلىَّ] .

قال : هذا من المقدم والمؤخر ، أى رافعك إلىَّ ومتوفيك .

وأخرج عن عكرمة فى قوله تعالى : [لهم عذاب شديد بما نسوا

يوم الحساب] قال : هذامن التقديم والتأخير ، يقول : [لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا] .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله تعالى : [ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان] قال : هذه الآية مقدمة ومؤخرة ، إنما هى : [أذاعوا به إلا قليلا منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته] لم ينج قليل ولا كثير .

وأخرج عن ابن عباس فى قوله تعالى : [فقالوا أرنا الله جهرة] قال : إنهم إذا رأوا الله ، فقد رأوه ، إنما قالوا: [جهرة أرنا الله [قال : هو مقدم ومؤخر ، قال ابن جرير : يعنى أن سؤالهم كان جهرة .

ومنه : [أرأيت من اتخذ إلهه هواه] : والأصل «هواه إلهه» لأن من اتخذ إلهه هواه غير مذموم ، فقدم المفعول الثانى للعناية به .

وقوله :[والذى أخرج المرعى ،فجعله غثاء أحوى] على تفسيره «أحوى» بالأخضر . وجعله نعتاً للمرعى ، أى أخرجه أحوى ، وأخر رعاية للفاصلة .

وقوله : [وغرابيب سود] ، والأصل «سود غرابيب» لأن الغربيب الشديد السواد .

وقوله : [فضحكت فبشرناها] ، أى فبشرناها فضحكت .

وقوله : [ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه] أى لهم بها ، وعلى هذا فالهم منفى عنه .

(الثانى) ما ليس كذلك ، وقد ألف فيه العلامة شمس الدين بن الصائغ كتابة «المقدمة فى سر الألفاظ المقدمة» قال فيه : الحكمة

المشائعة الذائعة فى ذلك الاهتمام كما قال سيبويه فى كتابه : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم ، وهم ببيانه أعنى .

قال : هذه الحكمة إجمالية وأما تفصيل أسباب التقديم وأسراره ، فقد ظهر لى منها فى الكتاب العزيز عشرة أنواع ، منها :

(الأول) : التبرك ، كتقديم اسم الله تعالى فى الأمور ذات الشأن ومنه قوله تعالى : [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم] .

وقوله : [وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول] الآية .

(الثانى) : التعظيم . كقوله : [ومن يطع الله والرسول] ، [إن الله وملائكته يصلون] ، [والله ورسوله أحق أن يرضوه] .

(الثالث) التشريف ، كتقديم الذكر على الأنثى ، نحو [إن المسلمين والمسلمات] الآية والحر فى قوله :[الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى] والحى فى قوله : [يخرج الحى من الميت] الآية [وما يستوى الأحياء ولا الأموات] ، والخيل فى قوله : [والخيل والبغال والحمير لتركبوها] والسمع فى قوله : [وعلى سمعهم وعلى أبصارهم] وقوله : [إن السمع والبصر والفؤاد] ، وقوله : [إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم] . حكى ابن عطية عن النقاش أنه استدل بها على تفضيل السمع على البصر ، ولذا وقع فى وصفه تعالى [سميع بصير] بتقديم « السميع » .

ومن ذلك تقديمه صلى الله عليه وسلم على نوح ومن معه فى قوله : [وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح] الاية ، وتقديم الرسول فى قوله : [من رسول ولا نبي] ، وتقديم المهاجرين فى قوله:

[والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار] وتقديم الإنس على الجن حيث ذكرا فى القرآن ، وتقديم النبيين ، ثم الصديقين ، ثم الشهداء ، ثم الصالحين ، فى آية النساء ، وتقديم إسماعيل على إسحاق لانه أشرف بكون النبى صلى الله عليه وسلم من ولده وأسن وتقديم جبريل على ميكائيل فى آية البقرة ، لأنه أفضل ، وتقديم العاقل على غيره فى قوله [متاعاً لكم ولأنعامكم] ، [يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات] .

(الرابع) : المناسبة ، وهى إما مناسبة المتقدم لسياق الكلام كقوله [ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون] ، فإن الجمال بالجمال ، وإن كان ثابتاً حالتى السراح والإراحة ، إلا أنها حالة إراحتها وهو مجيئها من المرعى آخر النهار يكون الجمال بها أفخر ، إذ هى فيه بطان ، وحالة سراحها للمرعى أول النهار يكون الجمال بها دون الأول ، إذ هى فيه خماص ، ونظيره قوله : [والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا] قدم نفى الإسراف لأن الشرف فى الانفاق .

وقوله : [يريكم البرق خوفاً وطمعاً] ، لأن الصواعق تقع مع أول برقة ، ولا يحصل المطر إلا بعد توالى البرقات .

(الخامس) الحث عليه والحض على القيام به ، حذراً من التهاون به ، كتقديم الوصية على الدّين فى قوله [من بعد وصية يوصى بها أو دين] مع أن الدين مقدم عليها شرعاً .

(السادس) : السبق ، وهو إما فى الزمان باعتبار الإيجاد كتقديم الليل على النهار ، والظلمات على النور ، وآدم على نوح ، ونوح على إبراهيم ، وإبراهيم على موسى ، وهو على عيسى ، وداود على سليمان ،

والملائكة على البشر فى قوله : [الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس] وعاد على ثمود ، والأزواج على الذرية فى قوله : [قل لأزواجك وبناتك] والسنة على النوم فى قوله تعالى : [لا تأخذه سنة ولا نوم] .

أو باعتبار الإنزال ، كقوله : [صحف إبراهيم وموسى] ، [وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان] .

أو باعتبار الوجوب والتكليف ، نحو : [اركعوا واسجدوا] ، [فاغسلوا وجوهكم وأيديكم] الآية [إن الصفا والمروة من شعائر الله] ولهذا قال صلى الله عليه وسلم [نبدأ بما بدأ الله به] .

أو بالذات ، نحو : [مثنى وثلاث ورباع] .

(السابع) السببية ، كتقديم العزيز على الحكيم ، لأنه عز فحكم والعليم عليه لأن الإحكام والإتقان ناشىء عن العلم وأما تقديم الحكيم عليه فى سورة الأنعام ، فلأنه مقام تشريع الأحكام .

ومنه تقديم العبادة على الإستعانة فى سورة الفاتحة ، لأنها سبب حصول الإعانة . وكذا قوله : [يحب التوابين ويحب المتطهرين] لأن التوبة سبب الطهارة ، [لكل أفاك أثيم] لأن الإفك سبب الإثم [يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم] لأن البصر داعية إلى الفرج .

(الثامن) الكثرة ، لقوله : [فمنكم كافر ومنكم مؤمن] ، لأن الكافر أكثر . [فمنهم ظالم لنفسه] الآية ، قدم الظالم لكثرته ، ثم المقتصد ثم السابق ، ولهذا قدم السارق على السارقة لأن السرقة فى الذكور أكثر ، والزانية على الزانى لأن الزنى فيهن أكثر .

ومنه تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع فى القرآن غالباً ، ولهذا ورد : « إن رحمتى غلبت غضبى » .

(التاسع) : الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله : [ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها] الآية ، بدأ بالأدنى لغرض الترقى ، لأن اليد أشرف من الرجل ، والعين أشرف من اليد ، والسمع أشرف من البصر ، ومع هذا النوع تأخير الأبلغ ، وقد خرج عليه تقديم الرحمن على الرحيم ، والرؤف على الرحيم ، والرسول على النبى ، فى قوله [وكان رسولا نبياً] ، وذكر لذلك نكت أشهرها مراعاة الفاصلة .

(العاشر) التدلى من الأعلى إلى الأدنى ، وخرج عليه : [لا تأخذه سنة ولا نوم] ، [لا يغادر صغيرة ولا كبيرة] ، [لن يستنكف المسيح أن يكون عبدالله ولا الملائكة المقربون] .

فى عامه وخاصه

العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر ، وصيغته « كل » مبتدأة نحو : [كل من عليها فان] ، أو تابعة ، نحو : [فسجد الملائكة كلهم أجمعون] .

والذى والتى وتثنيتهما وجمعهما ، نحو : [والذى قال لوالديه أف لكما] فإن المراد به كل من صدر منه هذا القول ، بدليل قوله بعد : [أولئك الذين حق عليهم القول] ، [والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة] ، [للذين أحسنوا الحسنى وزيادة] ، [للذين اتقوا عند ربهم جنات] [واللائى يئسن من المحيض] الآية [واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا . .]الآية [واللذان يأتيانها منكم فآذوهما] وأى وما من ، شرطا واستفهاماً موصولا ، نحو : [أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحسنى] ، [إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم] ، [من يعمل سوءاً يجز به] .

والجمع المضاف ، نحو : [يوصيكم الله فى أولادكم] ، ، والمعرف بأل نحو : [قد أفلح المؤمنون] ، [واقتلوا المشركين] .

واسم الجنس المضاف ، نحو : [فليحذر الذين يخالفون عن أمره] أى كل أمر الله .

والمعرف بأل ، نحو : [وأحل الله البيع] ، أى كل بيع [إن الإنسان لفى خسر] أى كل إنسان ، بدليل [إلا الذين آمنوا] والنكرة فى سياق النفى والنهى ، نحو : [فلا تقل لهما أف] [وإن من شىء إلا عندنا خزائنه] ، [ذلك الكتاب لا ريب فيه] ، [فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج] وفى سياق الشرط نحو : [وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله] . وفى سياق الامتناع ، نحو [وأنزلنا من السماء ماء طهوراً] وأما المخصوص فأمثلته فى القرآن كثيرة جداً ، وهو أكثر من المنسوخ ، إذ ما من عام إلا وقد خص .

ومن أمثلة ما خص بالقرآن قوله تعالى : [والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء] خص بقوله : [إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة] ، وبقوله : [وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن] .

وقوله : [حرمت عليكم الميتة والدم] خص من الميتة السمك بقوله : [أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة] ، ومن الدم الجامد بقوله [أو دماً مسفوحاً] .

وقوله : [وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً] ، الآية خص بقوله تعالى : [فلا جناح عليهما فيما افتدت به] .

وقوله : [والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة]

خص بقوله : [فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب] .

وقوله : [فانكحوا ما طاب لكم من النساء] خص بقوله : [حرمت عليكم أمهاتكم ...] الآية .

ومن أمثلة ما خص بالحديث قوله تعالى : [وأحل الله البيع] خص منه البيوع الفاسدة وهى كثيرة بالسنة ، [وحرم الربا] خص منه العرايا بالسنة .

وآيات المواريث خص منها القاتل والمخالف فى الدين بالسنة وآيات تحريم الميتة خص منها الجراد بالسنة ، وآية [ثلاثة قروء] خص منها الأَمة بالسنة .

وقوله : [ماءً طهوراً] خص منه المتغيّر بالسنة .

وقوله : [والسارق والسارقة فاقطعوا] ، خص منه من سرق دون ربع دينار بالسنة .

ومن أمثلة ما خص بالإجماع آية المواريث ، خص منها الرقيق فلا يرث بالإجماع ، ذكره مكى .

ومن أمثلة ما خص بالقياس آية الزنا : [فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة] خص منها العبد بالقياس على الأَمة المنصوصة فى قوله : [فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب] المخصص لعموم الآية ، ذكره مكى أيضاً .

فصـــل

من خاص القرآن ما كان مخصصاً لعموم السنة ، وهو عزيز ومن أمثلته قوله تعالى : [حتى يعطوا الجزية] ، خص عموم قوله صلى الله عليه وسلم : «أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» .

وقوله : [حافظوا على الصوات والصلاة الوسطى] خص عموم نهيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى الأوقات المكروهة بإخراج الفرائض

وقوله : [ومن أصوا ها وأوبارها] الآية ، خص عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أبين من حى فهو ميت » .

وقوله : [والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم] خص عموم قوله صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » .

وقوله : [فقاتلوا التى تبغى] خص عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » .

فـــروع
منثورة تتعلق بالعموم والخصوص

الأول : إذا سيق العام للمدح أو الذم ، فهل هو باق على عمومه ؟ فيه مذاهب :

أحدها : نعم ، إذ لا صارف عنه ، ولا تنافى بين العموم وبين المدح أو الذم .

والثانى : لا ، لأنه لم يسق للتعميم بل للمدح أو للذم .

والثالث : وهو الأصح : التفصيل ، فيعم إن لم يعارضه عام آخر لم يسق لذلك ، ولا يعم إن عارضه ذلك ، جمعا بينهما . مثاله ولامعارض قوله تعالى : [إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم] .

ومع المعارض قوله تعالى : [والذين هم لفروجهم حافظون،إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم] ، فإنه سيق للمدح ، وظاهره يعم الأختين بملك اليمين جمعا ، وعارضه فى ذلك [وأن تجمعوا بين الأختين]

فإنه شامل لجمعهما بملك اليمين ولم يسق للمدح ، فحمل الأول على ذلك بأن لم يرد تناوله له .

ومثاله فى الذم : [والذين يكنزون الذهب والفضة] الآية ، فإنه سيق للذم ، وظاهره يعم الحلى المباح ، وعارضه فى ذلك حديث جابر : « ليس فى الحلى زكاة » فحمل الأول على غير ذلك .

الثانى اختلف فى الخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم ، نحو : [يا أيها النبى] [يا أيها الرسول] ، هل يشمل الأمة ؟ فقيل : نعم ، لأن أمر القدوة أمر لأتباعه معه عرفا ، والأصح فى الأصول المنع لاختصاص الصيغة به .

الثالث : اختلف فى الخطاب : بـ [يا أيها الناس] هل يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ على مذاهب :

أصحها — وعليه الأكثرون — : : نعم لعموم الصيغة له ، أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال : إذا قال الله : [يا أيها الذين آمنوا افعلوا] فالنبى صلى الله عليه وسلم منهم .

والثانى : لا ، لأنه ورد على لسانه لتبليغ غيره ، ولماله من الخصائص

والثالث : إن اقترن بـ « قل » لم يشمله لظهوره فى التبليغ ، وذلك قرينة عدم شموله ، وإلا فيشمله .

الرابع : الأصح فى الأصول أن الخطاب بـ « يا أيها الناس » يشمل الكافر والعبد ، لعموم اللفظ ،

وقيل : لا يعم الكافر بناء على عدم تكليفه بالفروع ، ولا العبد ، لصرف منافعه إلى سيده شرعاً .

الخامس : اختلف فى «من» هل يتناول الأنثى ؟ فالأصح نعم ، خلافاً للحنفية ، لنا قوله تعالى : [ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى] فالتفسير بهما ذال على تناول « من » لهما ، وقوله تعالى : [من يقنت منكن لله] .

واختلف فى جمع المؤنث السالم هل يتناولها ؟ فالأصح لا ، وإنما يدخلن فيه بقرينة ، أما المكسر فلا خلاف فى دخولهن فيه .

السادس : اختلف فى الخطاب بيا أهل الكتاب » هل يشمل المؤمنين ؟ فالأصح لا ، لأن اللفظ قاصر على من ذكر . وقيل : إن شاركوهم فى المعنى شملهم ، وإلا فلا .

واختلف فى الخطاب بـ « يا أيها الذين آمنوا » هل يشمل أهل الكتاب ؟

فقيل : لا ، بناءً على أنهم غير مخاطبين بالفروع . وقيل : نعم ، واختاره ابن السمعانى ، قال : وقوله : [يا أيها الذين آمنوا] خطاب تشريف لا تخصيص

فى مجمله ومبينـــه

المجمل ما لم تتضح دلالته ، وهو واقع فى القرآن خلافاً لداود الظاهرى ، وفى جواز بقائه مجملا أقوال ، أصحها : لا يبقى المكلف بالعمل به بخلاف غيره .

واختلف فى آيات ، هل هى من قبيل المجمل أولا ؟

ومنها آية السرقة ، قيل : إنها مجملة فى اليد ، لأنها تطلق على العضو إلى الكوع ، وإلى المرفق ، وإلى المنكب ، وفى القطع لأنه يطلق

على الأبانة ، وعلى الجرح ولا ظهور لواحد من ذلك وإبانة الشارع من الكوع تبين أن المراد ذلك . وقيل : لا إجمال فيها لأن القطع ظاهر فى الإبانة .

ومنها : [وامسحو برؤسكم] قيل : إنها مجملة لترددها بين مسح الكل والبعض ، ومسح الشارع الناصية مبين لذلك ، وقيل : لا ، وإنما هى لمطلق المسح الصادق بأقل ما ينطلق عليه الإسم ويفيده .

ومنها الآيات التى فيها الأسماء الشرعية ، نحو : [وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة] [فمن شهد منكم الشهر فليصمه] [ولله على الناس حج البيت].

قيل : إنها مجملة لاحتمال الصلاة لكل دعاء، والصوم لكل إمساك والحج لكل قصد ، والمراد بها لا تدخل عليه اللغة ، فافتقر إلى البيان ، وقيل : لا ، بل يحمل على كل ما ذكر إلا ما خص بدليل .

فى ناسخه ومنسوخه

وفى هذا النوع مسائل :

الأولى : يرد النسخ بمعنى الازالة ، ومنه قوله : [فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته] .

وبمعنى التبديل ، ومنه : [وإذا بدلنا آية مكان آية] .

وبمعنى التحويل ، كتناسخ المواريث ، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد .

وبمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه : نسخت الكتاب . إذا نقلت ما فيه حاكياً للفظه وخطه .

الثانية : النسخ مما خص الله به هذه الأُمة لحكم ، منها : التيسير . وقد أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء ، كالذى يرى الرأى ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه ، والمرض بعد الصحة وعكسه ، والفقر بعد الغنى وعكسه . وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر والنهى .

واختلف العلماء فى النسخ فقيل : لا ينسخ القرآن إلا بالقرآن لقوله تعالى [ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها] قالوا : ولا يكون مثل القرآن وخيراً منه إلا قرآن .

وقيل : بل ينسخ القرآن بالسنة ، لأنها أيضاً من عند الله ، قال تعالى : [وما ينطق عن الهوى] وجعل منه آية الوصية الاتية .

الثالثة : لا يقع النسخ إلا فى الأمر والنهى ، ولو بلفظ الخبر ، أما الخبر الذى ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ ، ومنه الوعدوالوعيد . وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل فى كتب النسخ كثيراً من آيات الاخبار والوعد والوعيد .

الرابعة : النسخ أقسام :

أحدها : نسخ المأمور به قبل امتثاله ، وهو النسخ على الحقيقة كاية النجوى .

الثانى : نسخ ما كان شرعاً لمن قبلنا ، كآية شرع القصاص والدية أو كان أمر به أمراً إجمالياً كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالكعبة ، وصوم عاشوراء برمضان ، وإنما يسمى هذا نسخاً تجوزا .

الثالث : ما أمر به لسبب ، ثم يزول السبب ، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح ، ثم نسخ بإيجاب القتال ، وهذا فى الحقيقة

ليس نسخاً بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى : [أو ننسأها] ، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون ، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى ، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف ، وليس كذلك ، بل هي المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما ، لعله تقتضي ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إنما النسخ الازالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله .

الخامسة : قال بعضهم : سور القرآن باعتبار الناسخ والمنسوخ أقسام :

قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ ، وهو ثلاثة وأربعون : سورة الفاتحة ويوسف ، ويس ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والصف ، والجمعة والتحريم والملك ، والحاقة ، ونوح ، والجن ، والمرسلات ، وعم والنازعات ، والانفطار ، وثلاث بعدها ، والفجر وما بعدها إلى آخر القرآن ، إلا التين والعصر ، والكافرين .

وقسم فيه الناسخ والمنسوخ ، وهو خمسة وعشرون : البقرة وثلاث بعدها والحج ، والنور ، وتالياها والأحزاب ، وسبأ ، والمؤمن ، وشورى ، والذاريات ، والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمل ، والمدثر ، وكورت والعصر .

وقسم فيه الناسخ فقط ، وهو ستة : الفتح ، والحشر ، والمنافقون والتغابن ، والطلاق ، والأعلى .

وقسم فيه المنسوخ فقط ، وهو الأربعون الباقية ، كذا قال : وفيه نظر يعرف مما سيأتي :

السادس : النسخ فى القرآن على ثلاثة أضرب :

أحدها : ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فيما أنزل « عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن مما يقرأ من القرآن » رواه الشخان . وقد تكلموا فى قولها : « وهن مما يقرأ » فإن ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك .

وأجيب بأن المراد : قارب الوفاة ، أو أن التلاوة نسخت أيضاً ، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوفى وبعض الناس يقرؤها .

الضرب الثانى : ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهذا الضرب هو الذى فيه الكتب المؤلفة ، وهو على الحقيقة قليل جداً ، وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه ، فإن المحققين منهم كالقاضى أبى بكر بن العربى بين ذلك وأتقنه .

ومنه قوله تعالى : [كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ...] الآية منسوخة قيل بآية المواريث ، وقيل بحديث «ألا لا وصية لوارث » وقيل : بالإجماع حكاه ابن العربى .

قوله تعالى : [وعلى الذين يطيقونه فدية [قيل منسوخة بقوله : [فمن شهد منكم الشهر فليصمه [. وقيل : محكمة ولا مقدرة .

وقوله : [أحل لكم ليلة الصيام الرفث] ، ناسخة لقوله [كما كتب على الذين من قبلكم] لأن مقتضاها الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم ، ذكره ابن العربى . وحكى قولا آخر أنه نسخ لما كان بالسنة .

قوله تعالى : [يسألونك عن الشهر الحرام] الآية منسوخة بقوله :

[وقاتلوا المشركين كافة] الآية ، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة .

قوله تعالى : [والذين يتوفون منكم] إلى قوله [مناعا إلى الحول] منسوخة بآية أربعة أشهر وعشرا ، والوصية منسوخة بالميراث والسكنى ثابتة عند قوم منسوخة عند آخرين بحديث «ولا سكنى» .

وقوله تعالى : [وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله] منسوخة بقوله بعده : [لا يكلف الله نفساً إلا وسعها] .

وقوله تعالى : [اتقوا الله حق تقاته] قيل : إنه منسوخ بقوله : [فاتقوا الله ما استطعتم] وقيل : لا ، بل هو محكم وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية .

ومنه قوله تعالى : [لا يحل لك النساء ..] الآية ، منسوخة بقوله [إنا أحللنا لك أزواجك] الآية .

ومنه قوله تعالى : [إذا ناجيتم الرسول فقدموا] الآية منسوخة بالآية بعدها .

فإن قلت ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به ، فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه ، فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

والثانى : أن النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيرا للنعمة ، برفع المشقة ، وأما ما ورد فى القرآن ناسخاً لما كان عليه الجاهلية أو كان فى شرع من قبلنا ، أو فى أول الإسلام ، فهو أيضاً قليل

العدد ، كنسخ استقبال بيت المقدس بآية القبلة ، وصوم عاشوراء بصوم رمضان .

فوائد منثورة

قال بعضهم : ليس فى القرآن ناسخ إلا والمنسوخ قبله فى الترتيب إلا فى آيتين : آية العدة فى البقرة ، وقوله [لا يحل لك النساء] كما تقدم .

وزاد بعضهم ثالثة : وهى آية الحشر فى الفىء على رأى من قال إنها منسوخة بآية الأنفال : [وأعلموا أنما غنمتم من شىء] .

وزاد قوم رابعة وهى قوله : [خذ العفو] يعنى الفضل من أموالهم على رأى من قال إنها منسوحة بآية الزكاة .

وقال ابن العربى : كل ما فى القرآن من الصفح عن الكفار والتولى والإعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف ، وهى : [فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين] الآية ، نسخت مائة وأربعا وعشرين آية ، ثم نسخ آخرها أولها . انتهى وكلامه هذا فيه مناقشة .

وقال أيضاً : من عجيب المنسوخ قوله تعالى : [خذ العفو] الآية فإن أولها وآخرها وهو : [وأعرض عن الجاهلين] منسوخ ، ووسطها محكم وهو : [وأمر بالعرف] .

وقال : ومن عجيبه أيضاً آية أولها منسوخ وآخرها ناسخ ، ولا نظير لها وهى قوله : [عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم] يعنى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهذا ناسخ لقوله : [عليكم أنفسكم]

تنبيـــه

قال ابن الخصار : إنما يرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن صحابى يقول : آية كذا نسخت كذا .

قال : وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به من علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر .

قال : ولا يعتمد فى النسخ قول عوام المفسرين ، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ، ولا معارضة بينة ، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر فى عهده صلى الله عليه وسلم . والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأى والاجتهاد

فى مشكله وموهم الاختلاف والتناقض

وكلامه تعالى منزه عن ذلك كما قال : [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافاً وليس به فى الحقيقة فاحتج لإزالته ، كما صنف فى مختلف الحديث وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة ، وقد تكلم فى ذلك ابن عباس ، وحكى عنه التوقف فى بعضها .

قال عبد الرازق فى تفسيره : أنبأنا معمر ، عن رجل ، عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال : رأيت أشياء تختلف علىّ من القرآن ، فقال ابن عباس : ما هو ؟ أشك قال : ليس بشك ، ولكنه اختلاف ، قال : هات ما اختلف عليك من ذلك ، .

قال : أسمع الله يقول : [ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله

ربنا ما كنا مشركين] ، قال : [ولا يكتمون الله حديثاً] فقد كتموا ، وأسمعه يقول : [فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون] ثم قال : [وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] وقال : [أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين] حتى بلغ [طائعين] ثم قال فى الآية الأخرى : [أم السماء بناها] ثم قال : [والأرض بعد ذلك دحاها] وأسمعه يقول : [كان الله] ما شأنه يقول : [وكان الله] .

فقال ابن عباس : أما قوله : [ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين] فإنهم لما رأوا يوم القيامة ، وأن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم فقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً .

وأما قوله : [خلق الأرض فى يومين] فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض وأما قوله : [والأرض بعد ذلك دحاها] يقول : : جعل فيها جبلا ، وجعل فيها نهراً ، وجعل فيها شجراً ، وجعل فيها بحوراً .

وأما قوله : [كان الله] ، فإن الله كان ولم يزل كذلك ، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير ، لم يزل كذلك .

فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك ، وإن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد أصاب به الذى أراد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أخرجه بطوله الحاكم فى المستدرك وصححه ، وأصله فى الصحيح قال ابن حجر فى شرحه : حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع :

الأول : نفى المسألة يوم القيامة وإثباتها .

الثانى : كتمان المشركين حالهم وإفشاؤهم .

الثالث : خلق الأرض أو السماء ، أيهما تقدم .

الرابع : الإتيان بحرف « كان» الدالة على المضى مع أن الصفة لازمة وحاصل جواب ابن عباس عن الأول ، أن نفى المسألة فيما قبل النفخة الثانية ، وإثباتها فيما بعد ذلك .

وعن الثانى ، أنهم يكتمون بألسنتهم ، فتنطق أيديهم وجوارحهم

وعن الثالث ، أنه بدأ خلق الأرض فى يومين غير مدحوة ، ثم خلق السموات فسواهن فى يومين ، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسى وغيرها فى يومين ، فتلك أربعة أيام للأرض .

وعن الرابع ، بأن «كان» وإن كانت للماضى ، لكنها لا تستلزم الانقطاع بل المراد أنه لم يزل كذلك .

موضع آخر توقف فيه ابن عباس ، قال أبو عبيد : حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم عن أيوب ، عن ابن أبى مليكة ، قال :سأل رجل ابن عباس عن : فوله تعالى [فى يوم كان مقداره ألف سنة] وقوله :[فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة] فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه الله أعلم بهما .

قال الزركشى فى البرهان : للاختلاف أسباب :

أحدهما : وقوع المخبر به على أنواع مختلفة وتطويرات شتى ، كقوله فى خلق آدم : [من تراب] ومرة : [من حماء مسنون] ومرة :

[طين لازب] ومرة [من صلصال كالفخار] فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها فى أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمإ ، والحمإ غير غير التراب ، إلا أن مرجعها كلها جوهر وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال .

الثانى : لاختلاف الموضع ، كقوله : [وقفوهم إنهم مسئولون] وقوله فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين] مع قوله : [فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان] ، قال الحليمى : فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، والثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه .

وحمله غيره على اختلاف الأماكن ، لأن فى القيامة مواقف كثيرة ففى موضع يسألون ، وفى آخر لا يسألون . وقيل إن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ ، والمنفى سؤال المعذرة وبيان الحجة .

الثالث : لاختلافهما فى جهتى الفعل ، كقوله : [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت إذ رميت] أضيف القتل إليهم والرمى إليه صلى الله عليه وسلم على جهة الكسب والمباشرة ، ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير .

الرابع : لاختلافهما فى الحقيقة والمجاز ، كقوله : [وترى الناس سكارى وما هم بسكارى] أى سكارى من الأهوال مجازا ، لا من الشراب حقيقة .

الخامس : بوجهين واعتبارين كقوله : [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله] مع قوله : [إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم] فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة .

وجوابه : أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى ، فتوجل القلوب لذلك وقد جمع بينهما فى قوله : [تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] .

ومما استشكل أيضاً قوله تعالى : [فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا] [فمن أظلم ممن كذب على الله] مع قوله : [ومن أظلم ممن ذكر بآت ربه فاعرض عنها ونسى ما قدمت يداه] ، [ومن أظلم ممن منع مساجد الله] إلى غير ذلك من الآيات ، ووجهه أن المراد بالاستفهام هنا النفى ، والمعنى : «لا أحد أظلم » فيكون خبراً ، وإذا كان خبراً وأخذت الآيات على ظواهر ها أدى إلى التناقض . وأجيب بأوجه :

منها تخصيص كل موضع بمعنى صلته ، أى لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً ، وإذا تخصص بالصلات فيها زال التناقض .

فى مطلقه ومقيـــده

المطلق الدال على الماهية بلا قيد ، وهو مع المقيد كالعام مع الخاص، قال : العلماء : متى وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه وإلا فلا ، بل يبقى المطلق على إطلاقه ، والمقيد على تقييده ، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب .

والضابط أن الله إذا حكم فى شىء بصفة أو شرط ، ثم ورد حكم آخر مطلقاً نظر ، فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد

وجب تقييده به ، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر . فالأول مثل اشتراط العدالة فى الشهود على الرجعة والفراق والوصية فى قوله : [وأشهدوا ذوى عدل منكم] وقوله : [شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم] وقد أطلق الشهادة فى البيوع وغيرها فى قوله : [وأشهدوا إذا تبايعتم] ، [فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم] .

والعدالة شرط فى الجميع :

وكذلك ما اشترط فى كفارة القتل من الرقبة المؤمنة ، وإطلاقها فى كفارة الظهار واليمين ، والمطلق كالمقيد فى وصف الرقبة .

وكذلك تقييد الأيدى بقوله : [إلى المرافق] فى الوضوء وإطلاقه فى التيمم .

وتقييد إحباط العمل بالردة بالموت على الكفر فى قوله : [ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر] الآية ، وأطلق فى قوله :

[ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله] .

وتقييد تحريم الدم بالمسفوح فى الأنعام ، وأطلق فيما عداها فمذهب الشافعى حمل المطلق على المقيد فى الجميع .

ومن العلماء من لايحمله ويجوز إعتاق الكافرة فى كفارة الظهار واليمين ، ويكتفى فى التيمم بالمسح إلى الكوعين ويقول : : إن الردة تحبط العمل بمجردها .

فى منطوقه ومفهومه

المنطوق ما دل عليه اللفظ فى محل النطق ، فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره فالنص نحو ، [فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة] .

أو مع احتمال غيره احتمالا مرجوحاً ، فالظاهر نحو : [فمن اضطر غير باغ ولا عاد] فإن الباغى يطلق على الجاهل وعلى الظالم ، وهو فيه أظهر وأغلب ، نحو [ولا تقربوهن حتى يطهرن] فإنه يقال للانقطاع طهر ، وللوضوء ، والغسل وهو فى الثانى أظهر .

فإن حمل على المرجوح لدليل فهو تأويل ، ويسمى المرجوح المحمول عليه مؤولا ، كقوله : [وهو معكم أينما كنتم] فإنه يستحيل حمل المعية على القرب بالذات ، فتعين صرفه عن ذلك ، وحمله على القدرة والعلم أو على الحفظ والرعاية .

وكقوله ، [واخفض لهما جناح الذل من الرحمة] فإنه يستحيل حمله على الظاهر ، لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة ، فيحمل على الخضوع وحسن الخلق .

والمفهوم ما دل عليه اللفظ . لا فى محل النطق ، وهو قسمان ، مفهوم موافقة . ومفهوم مخالفة .

فالأول : ما يوافق حكمه المنطوق ، فإن كان أولى سمى فحوى الخطاب كدلالة : [فلا تقل لهما أف] على تحريم الضرب لأنه أشد ، وإن كان مساوياً سمى لحن الخطاب ، أى معناه ، كدلالة : [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً] على تحريم الإحراق لأنه مساوٍ للأكل فى الإتلاف .

والثانى : ما يخالف حكمه المنطوق ، وهو أنواع :

مفهوم صفة ، نعتاً كان أو حالا أو ظرفاً أو عدداً ، نحو : [إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا] مفهومه أن غير الفاسق لا يجب التبين فى خبره فيجب قبول خبر الواحد العدل .

وشرط ، نحو : [وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن] أى فغير أولات الحمل لا يجب الإنفاق عليهن .

وغاية ، نحو : [فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره] أى فإذا نكحته فإنها تحل للأول بشرطه .

وحصر نحو : [لا إله إلا الله] ،[إنما إلهكم الله] أى فغيره ليس بإله [فالله هو الولى] أى فغيره ليس بولى [لإلى الله تحشرون] أىلا إلى غيره [إياك نعبد] أى لا غيرك .

واختلف فى الاحتجاج بهذه المفاهيم على أقوال كثيرة والأصح فى الجملة أنها كلها حجة بشروط ، تطلب فى كتب الأصول .

فى وجوه مخاطباته

قال ابن الجوزى فى كتابه « النفيس» : الخطاب فى القرآن على خمسة عشر وجهاً .

وقال غيره : على أكثر من ثلاثين وجهاً : ونذكر بعضها :

أحدها : خطاب العام ، والمراد به العموم ، كقوله : [الله الذى خلقكم] .

والثانى : خطاب الخاص والمراد به الخصوص ، كقوله [أكفرتم بعد إيمانكم] ، [يا أيها الرسول بلغ] .

والثالث : خطاب العام والمراد به الخصوص ، كقوله : [يا أيها

الناس اتقوا ربكم] ، لم يدخل فيه الأطفال والمجانين .

الرابع : خطاب الخاص والمراد به العموم ، كقوله : [يا أيها النبي إذا طلقتم النساء] افتتح الخطاب بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد سائر من يملك الطلاق ، وقوله : [يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك] الآية ، قال أبو بكر الصيرفى كان ابتداء الخطاب له ، فلما قال فى الموهوبة : [خالصة لك] علم أن ما قبلها له ولغيره .

الخامس : خطاب الجنس ، كقوله : [يا أيها النبي] .

السادس : خطاب النوع ، نحو : [يابنى إسرائيل] .

السابع : خطاب العين ، نحو [وقلنا يا آدم اسكن] ، [يا نوح اهبط] [يا إبراهيم قد صدقت] ، [يا موسى لا تخف] [ياعيسى إنا متوفيك] ولم يقع فى القرآن الخطاب بـ « يا محمد » بل : [يا أيها النبي] [يا أيها الرسول] ، تعظيما له وتشريفاً وتخصيصاً بذلك عما سواه وتعليماً للمؤمنين إلاَّ ينادوه باسمه .

الثامن : خطاب المدح ، نحو : [يا أيها الذين آمنوا] ، ولهذا وقع خطاباً لأهل المدينة ، [والذين آمنوا وهاجروا] .

التاسع : خطاب الذم ، نحو : [يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم] [قل يا أيها الكافرون] .

العاشر : خطاب الكرامة ، كقوله : [يا أيها النبي] ، [يا أيها الرسول] .

الحادى عشر : خطاب الإهانة ، نحو : [فإنك رجيم] [إخسئوا فيها ولا تكلمون] .

الثانى عشر : خطاب التهكم ، نحو : [ذق إنك أنت العزيز الكريم] .

الثالث عشر : خطاب الجمع بلفظ الواحد ، نحو : [يا أيهاالإنسان ما غرك بربك الكريم] .

الرابع عشر : خطاب الواحد بلفظ الجمع ، نحو : [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات] إلى قوله [فذرهم فى غمرتهم] فهو خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده ، إذ لا نَبِى معه ولا بعده .

وكذا قوله : [وإن عاقبتم فعاقبوا] الآية ، خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده بدليل قوله : [واصبروا وما صبرك إلا بالله] الآية .

وكذلك قوله : [فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا] بدليل قوله [قل فأتوا] .

الخامس عشر : خطاب الواحد بلفظ الاثنين ، نحو : [ألقيا فى جهنم] والخطاب لمالك خازن النار ، وقيل : لخزنة النار والزبانية فيكون من خطاب الجمع بلفظ الاثنين . وقيل : للملكين الموكلين به فى قوله : [وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد] .

السادس عشر : خطاب الاثنين بلفظ الواحد ، كقوله [فمن ربكما يا موسى] أى وياهرون .

ومثله : [فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى] قال ابن عطية : أفرده بالشقاء ، لأنه المخاطب أولا ، والمقصود فى الكلام .

السابع عشر : خطاب الاثنين بلفظ الجمع ، كقوله : [أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة] .

فائـــدة

قال بعضهم : خطاب القرآن ثلاثة أقسام .

قسم لا يصلح إلا للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقسم لا يصلح إلا لغيره .

وقسم لهما .

فى حقيقته ومجـــازه

لا خلاف فى وقوع الحقائق فى القرآن ، وهى كل لفظ بقى على موضوعه ولا تقديم فيه ولا تـأخير ، وهذا أكثر الكلام .

وأما المجاز فالجمهور أيضاً على وقوعه فيه ، وأنكره جماعة منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية وابن خويز منداد من المالكية ، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزه عنه ، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة ، فيستعير ، وذلك محال على الله تعالى . وهذه شبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن ، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها .

والمجاز قسمان :

الأول : المجاز فى التركيب ، ويسمى مجاز الإسناد ، والمجاز العقلى وعلاقته الملابسة ، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملابسته له ، كقوله تعالى [وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً] نسبت الزيادة وهى فعل الله إلى الآيات ، لكونها سبباً لها . [يذبح

أبناءهم] [يا هامان ابن لى] نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون ، والبناء وهو فعل العملة إلى هامان لكونهما آمرين به .

وكذا قوله [وأحلوا قومهم دار البوار] نسب الإحلال إليهم لتسبّبهم فى كفرهم بأمرهم إياهم به .

ومنه قوله تعالى [يوماً يجعل الولدان شيبا] نسب الفعل إلى الظرف لوقوعه فيه [عيشة راضية] أى مرضية .

القسم الثانى : المجاز فى المفرد ، ويسمى المجاز اللغوى ، وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له أولا ، وأنواعه كثيرة .

أحدها : الحذف .

الثانى : الزيادة .

الثالث : إطلاق اسم الكل على الجزء ، نحو [يجعلون أصابعهم فى آذانهم] أى أناملهم ، ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة إلى إدخال لها على غير المعتاد مبالغة من الفرار فكأنهم جعلوا الأصابع [وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم] ، أى وجوههم ، لأنه لم ير جملتهم .

الرابع : عكسه ، نحو [ويبقى وجه ربك] أى ذاته ، [فولوا وجوهكم شطره] ، أى ذواتكم إذ الاستقبال يجب بالصدر [وجوه يومئذ ناعمة] [وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة] عبر بالوجوه عن جميع الأجساد ، لأن التنعم والنصب حاصل لكلها ، [ذلك بما قدمت يداك] [بما قدمت أيديكم] أى قدمت وكسبت ، ونسب ذلك إلى الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاول بها .

الخامس : إطلاق اسم الخاص على العام ، نحو : [إنا رسول رب العالمين] أى رسله .

السادس : عكسه ، نحو : [ويستغفرون لمن فى الأَرض] أَىالمؤمنين بدليل قوله : [ويستغفرون للذين آمنوا] .

السابع : تسمية الشىء باسم ما كان عليه ، نحو : [وآتوا اليتامى أَموالهم] ، أَى الذين كانوا يتامى ، إذ لا يُتْم بعد البلوغ ، [فلاتعضلوهن أَن ينكحن أَزواجهن] أَى الذين كانوا أَزواجهن ، [من يأْت ربه مجرماً] ، سماه مجرماً باعتبار ما كان فى الدنيا من الاجرام .

الثامن : تسمية باسم ما يؤول إليه ، نحو : [إنى أَرانى أَعصر خمراً] أَى عنباً يؤول إلى الخمرية ، [ولا يلد إلا فاجراً كفاراً] أَى صائر إلى الكفر والفجور . [حتى تنكح زوجاً غيره] سماه زوجا لأَن العقد يؤول إلى زوجية ، لأَنها لا تنكح إلا فى حال كونه زوجاً . [فبشرناه بغلام حليم] ، [نبشرك بغلام عليم] وصفة فى حال البشارة بما يؤول إليه من العلم والحلم .

التاسع : إطلاق اسم الحال على المحل ، نحو : [ففى رحمة الله هم فيها خالدون] أَى فى الجنة ، لأَنها محل الرحمة ، [بل مكر الليل] أَى فى الليل [إذ يريكهم الله فى منامك] أَى فى عينك ، على قول الحسن

العاشر : تسمية الشىء باسم آلته ، نحو : [واجعل لى لسان صدق فى الآخرين] أَى ثناء حسناً لأَن اللسان آلته ، [وما وما أَرسلنا من رسول إلا بلسان قومه] أَى بلغة قومه .

الحادى عشر : تسمية الشىء باسم ضده ،نحو :[فبشرهم بعذاب أَليم]

الثانى عشر : إطلاق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته وإرادته نحو : [فإذا بلغن أَجلهن فأَمسكوهن] أَى قاربن بلوغ الأَجل ، أَى انقضاء العدة ، لأَن الإمساك لا يكون بعدة ، وهو فى قوله : [فبلغن أَجلهن فلا تعضلوهن]

حقيقة [فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] أى فإذا قرب مجيئه .

[وليخش الذين لو تركوا من خلفهم] الآية ، أى لو قاربوا أن يتركوا خافوا لأن الخطاب للأوصياء ، وإنما يتوجه إليهم قبل الترك لأنهم بعده أموات ، [إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا] أى أردتم القيام ، [فإذا قرأت القرآن فاستعذ] أى أردت القراءة ، لتكون الاستعاذة قبلها ، [وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا] أى أردنا إهلاكها ، وإلا لم يصح العطف بالفاء .

الثالث العشر : إقامة صيغة مقام أخرى ، وتحته أنواع كثيرة : منها إطلاق فاعل على مفعول ، نحو [ماء دافق] أى مدفوق [لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم] أى لا معصوم ، [جعلنا حرما آمنا] أى مأموناً فيه .

وعكسه نحو [إنه كان وعده مأتيا] أى آتيا [حجاباً مستوراً] أى ساتراً . وقيل : هو على بابه ، أى مستوراً عن العيون لا يحس به أحد ومنها إطلاق واحد من المفرد والمثنى والجمع على آخر منها .

مثال إطلاق المفرد على المثنى [والله ورسوله أحق أن يرضوه] أى يرضوهما ، فأفرد لتلازم الرضاءين .

وعلى الجمع ، نحو [إن الإنسان لفى خسر] أى الأناسىء بدليل الاستثناء منه ، [إن الإنسان خلق هلوعاً] بدليل [إلا المصلين] .

ومثال إطلاق المثنى على المفرد [ألقيافى جهنم] ، أى ألق .

ومنه كل فعل نسب إلى شيئين وهو لأحدهما فقط ، نحو [يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان] ، وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب

[وجعل القمر فيهن نوراً] أى فى إحداهن [نسيا حوتهما] ، والناسى يوشع ، بدليل قوله لموسى [فإنى نسيت الحون] وإنما أضيق النسيان إليهما معاً لسكوت موسى عنه [فمن تعجل فى يومين] والتعجيل فى اليوم الثانى .

ومثال إطلاقه على الجمع : [ثم ارجع البصر كرتين] أى كرات ، لأن البصر لا يحسر إلا بها .

ومثال إطلاق الجمع على المفرد [قال رب ارجعون] أى ارجعنى ومنها إطلاق الماضى على المستقبل لتحقق وقوعه ، نحو : [أتى أمر الله] أى الساعة ، بدليل [فلا تستعجلوه] ، [ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات] [وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس] .

وعكسه ، لإفادة الدوام والاستمرار فكأنه وقع واستمر . نحو : [أتأمرون الناس بالبر وتنسون] [واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان] أى تلت [ولقد نعلم] أى علمنا [قد يعلم ما أنتم عليه] أى علم [فلم تقتلون أنبياء الله] أى قتلتم

فى الخبر والإنشاء

أعلم أن الحذاق من النحاة وغيرهم وأهل البيان قاطبة على انحصار الكلام فيهما ، وأنه ليس له قسم ثالث .

والخبر هو الذى يدخله الصدق والكذب . القصد بالخبر إفادة المخاطب ، وقد يرد بمعنى الأمر ، نحو : [والوالدات يرضعن] [والمطلقات يتربصن] . وبمعنى النهى نحو : [لا يمسه إلا المطهرون] ، وبمعنى الدعاء نحو : [وإياك نستعين] أى أعنّا ، ومنه [تبت يدا أبى لهب وتب]

فإنه دعاء عليه وكذا : [غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا] وجعل منه قوم : [حصرت صدورهم] قالوا : هو دعاء عليهم بضيق صدورهم عن قتال أحد .

فصل

من أقسام الإنشاء : الاستفهام وهو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار

وأدواته : الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأيّ ، وكم ، وكيف وأين ، وأنى ، ومتى ، وأيان ،

ويرد الاستفهام لمعان متعددة :

الأول : الإنكار ، والمعنى فيه على النفى وما بعده منفى ، ولذلك تصحبه « إلا » كقوله : [فهل يهلك إلا القوم الفاسقون] [وهل نجازى إلا الكفور] وعطف عليه المنفى فى قوله : [فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين] أى يهدى ، ومنه : [أنؤمن لك وأتبعك الأرذلون] ، [أنؤمن لبشرين مثلنا] أى لا نؤمن ، [أم له البنات ولكم البنون] ، [ألكم الذكر وله الأنثى] أى لا يكون هذا ، [أشهدوا خلقهم] أى ما شهدوا ذلك . وكثيراً ما يصحبه التكذيب وهو فى الماضى بمعنى « لم يكن » وفى المستقبل بمعنى « لا يكون » نحو [أفأصفاكم ربكم بالبنين ...] الآية ، أى لم يفعل ذلك ، [أنلزمكموها وأنتم لها كارهون] أى لا يكون هذا الالزام .

الثانى : التوبيخ ، ويعبر عن ذلك بالتقريع أيضاً ، نحو [أفعصيت أمرى] ، [أتعبدون ما تنحتون] ، [أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين] .

وأكثر ما يقع التوبيخ فى أمر ثابت ، ووبخ على فعله كما ذكر

ويقع على ترك فعل كان ينبغى أن يقع ، كقوله : [أولم نعمركم] [ما يتذكر فيه من تذكر] ، [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها] .

والثالث : التقرير وهو حمل المخاطب على الأقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده .

والكلام مع التقرير موجب ، ولذلك يعطك عليه صريح الموجب ويعطف على صريح الموجب ، فالأول كقوله تعالى : [ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك ووزرك] ، [ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك] [ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل] .

والثانى : نحو [أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً] على ما قرره الجرجانى من جعلها مثل [وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا].

وحقيقة استفهام التقرير ، أنه استفهام إنكار ، والإنكار نفى ، وقد دخل على النفى ونفى النفى إثبات ، ومن أمثلته : [أليس الله بكاف عبده] [ألست بربكم] وجعل منه الزمخشرى [ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير].

الرابع : التعجب أو التعجيب ، نحو : [كيف تكفرون بالله] [مالى لا أرى الهدهد] . . وقد اجتمع هذا القسم وسابقاه فى قوله : [أتأمرون الناس بالبر] .

قال الزمخشرى : الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم . ويحتمل التعجب والاستفهام الحقيقى : [ما ولاهم عن قبلتهم] .

الخامس : العتاب ، كقوله : [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله] .

ومن ألطف ما عاتب الله به خير خلقه بقوله : [عفا الله عنك لم أذنت لهم] .

السادس : التذكير ، وفيه نوع اختصار ، كقوله : [ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان] ، [ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض] ، [هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه] .

السابع : الافتخار ، نحو : [أليس لى ملك مصر] .

الثامن : التفخيم ، نحو : [مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة] .

التاسع : التهويل والتخويف ، نحو : [الحاقة ، ما الحاقة] [القارعة ، ما القارعة] .

العاشر : عكسه ، وهو التسهيل والتخفيف ، نحو : [وماذا عليهم لو آمنوا] .

الحادى عشر : التهديد والوعيد ، نحو : [ألم نهلك الأولين]

الثانى عشر : التسوية ، وهو الاستفهام الداخل على جملة يصح حلول المصدر محلها نحو : [سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم] .

الثالث عشر : الأمر ، نحو : [أأسلمتم] أى أسلموا [فهل أنتم منتهون] أى انتهوا ، [أتصبرون] أى أصبروا .

الرابع عشر : التنبيه ، وهو من أقسام الأمر ، نحو : [ألم تر إلى ربك كيف مد الظل] أى أنظر .

الخامس عشر : الترغيب ، نحو : [من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً] [هل أدلكم على تجارة تنجيكم] .

السادس عشر : النهى ، نحو : [أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه] ،

بدليل : [فلا تخشوا الناس واخشون] [ما غرك بربك الكريم] أى لا تغتر .

السابع عشر : الدعاء ، وهو كالنهى ، إلا أنه من الأدنى إلى الأعلى نحو : [أتهلكنا بما فعل السفهاء] أى لا تهلكنا .

الثامن عشر : الاسترشاد ، نحو : [أتجعل فيها من يفسد فيها] .

إلى غير ذلك من المعانى

فصـــل
من أقسام الإنشاء الأمر

وهو طلب فعل غير كف بغير لفظ كف، وصغته « افعـل » و « ليفعل » وهى حقيقة فى الايجاب ، نحو : [أقيموا الصلاة] ، [فليصلوا معك] .

وترد مجازا لمعـان أخر :

ومنها الندب ، نحو : [وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا] والإباحة ، نحو : [فكاتبوهم] نص الشافعى على أن الأمر فيه للإباحة ومنه : [وإذا حللتم فاصطادوا] .

والدعاء من السافل للعالى ، نحو : [رب اغفرلى] .

والتهديد ، نحو : [اعملوا ما شئتم] إذ ليس المراد الأمر بكل عمل شاءوا .

والإهانة ، نحو : [ذق إنك أنت العزيز الكريم] .

والتسخير ، أى التذليل ، نحو : [كونوا قردة] عبر به عن نقلهم من حالة إلى حالة إذلالاً لهم ، فهو أخص من الإهانة .

والتعجيز ، نحو : [فأتوا بسورة من مثله] ، إذ ليس المراد طلب ذلك منهم ، بل إظهار عجزهم .

والإمتنان ، نحو [كلوا من ثمره إذا أثمر] .

والعجب ، نحو : [أنظر كيف ضربوا لك الأمثال] .

والتسوية ، نحو : [فاصبروا أو لا تصبروا] .

والإرشاد ، نحو : [وأشهدوا إذا تبايعتم] .

والاحتقار ، نحو : [ألقوا ما أنتم ملقون] .

والإنذار ، نحو : [قل تمتعوا] .

والإكرام ، نحو : [أدخلوها بسلام] .

والانعام ، أى تذكير النعمة ، نحو : [كلوا مما رزقكم الله] والتكذيب ، نحو : [قل فأتوا بالتوراة فاتلوها] ، [قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا] .

والمشورة ، نحو : [فانظر ماذا ترى] .

والاعتبار ، نحو : [انظروا إلى ثمره إذا أثمر].

فصل

ومن أقسامه النهى

وهو طلب الكف عن فعل ، وصيغته : « لا تفعل » وهى حقيقة فى التحريم .

وترد مجاز لمعان :

منها الكراهة ، نحو : [ولا تمش فى الأرض مرحاً] .

والدعاء ، نحو : [ربنا لا تزغ قلوبنا] .

والإرشاد ، نحو : [لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم] .

والتسوية ، نحو : [أولا تصبروا] .

والاحتقار والتقليل ، نحو : [لا تمدن عينيك ...] الآية ، أى فهو قليل حقير .

وبيان العاقبة ، نحو : [ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء] أى عاقبة الجهاد الحياة ، لا الموت .

واليأس ، نحو : [لا تعتذروا] .

والإهانة ، نحو : [اخسئوا فيها ولا تكلمون] .

فى فواتح السور

أعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها .

الأول : الثناء عليه تعالى .

الثانى : حروف التهجى فى تسع وعشرين سورة ، وقد مضى الكلام عليها مستوعباً فى نوع المتشابه ، ويأتى الإلمام بمناسباتها فى نوع المناسبات .

الثالث : النداء فى عشر سور : خمس بنداء الرسول صلى الله عليه وسلم : الأحزاب ، الطلاق ، التحريم ، المزمل ، المدثر ، وخمس بنداء الأمة : النساء والمائدة ، والحج ، والحجرات ، والممتحنة .

الرابع : الجمل الخبرية ، نحو : [يسألونك عن الأنفال] ، [براءة من الله] ، [أتى أمر الله] ، [اقترب للناس حسابهم] ، [قد أفلح المؤمنون] ، [سورة أنزلناها] ، [تنزيل الكتاب] ، [الذين كفروا] ، [إنا فتحنا] ، [اقتربت الساعة] ، [الرحمن علم] ، [لقد سمع الله] ، [الحاقة] ، ، [سأل سائل] ، [إنا أرسلنا نوحاً] [لا أقسم] فى موضعين ، [عبس] ، [إنا أنزلناه] ، [لم يكن] ، [القارعة] ، [ألهاكم] ، [إنا أعطينا] فتلك ثلاث وعشرون سورة .

الخامس : القسم فى خمس عشرة سورة ، سورة أقسم فيها بالملائكة

وهى : والصافات ، وسورتان بالأفلاك : البروج ، والطارق ، وست سور بلوازمها ، فالنجم قسم بالثريا ، والفجر بمبدأ النهار والشمس بآية النهار والليل بشطر الزمان ، والضحى بشطر النهار ، والعصر بالشطر الآخر ، أو بجملة الزمان ، وسورتان بالهواء الذى هو أحد العناصر والذاريات ، والمرسلات ، وسورة بالتربة التى هى منها أيضاً وهى : الطور ، وسورة بالنبات وهى : والتين ، وسورة بالحيوان الناطق وهى : والنازعات ، وسورة بالبهيم وهى : والعاديات

السادس : الشرط فى سبع سور : الواقعة ، والمنافقون ، والتكوير والإنفطار ، والإنشقاق ، والزلزلة ، والنصر .

السابع : الأمر فى ست سور : قل أوحى ،إقرأ، قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد ، قل أعوذ ، المعوذتين .

الثامن : الاستفهام فى ست سور : هل أتى عم يتساءلون ، هل أتاك ألم نشرح، ألم تر ، أرأيت .

التاسع : الدعاء فى ثلاث : ويل للمطففين ، ويل لكل همزة ، تبت ، .

العاشر : التعليل فى لإيلٰف قريش .

فى خواتم السور

وهى أيضاً مثل الفواتح فى الحسن ، لأنها آخر ما يقرع الأسماء ، فلهذا جاءت متضمنة للمعانى البديعية ، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعد ، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض ، وتحميد وتهليل ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد ، إلى

غير ذلك ، كتفصيل جملة المطاوب فى خاتمة الفاتحة إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصى المسببة لغضب الله والضلال ففصل جملة ذلك بقوله : [الذين أنعمت عليهم]

وكالدعاء الذى اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة وكالوصايا التى ختمت بها سورة آل عمران .

والفرائض التى ختمت بها سورة النساء ، وحسن الختم بها لما فيها من أحكام الموت الذى هو آخر أمر كل حى ، ولأنها آخر ما أنزل من الأحكام .

وكالتبجيل والتعظيم الذى ختمت به المائدة .

وكالوعد والوعيد الذى ختمت به الأنعام .

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذى ختمت به الأعراف .

وكالحض على الجهاد وصلة الأرحام الذى ختمت به الانفال وكوصف الرسول ومدحه ، والتهليل الذى ختمت براءة وتسليته عليه الصلاة والسلام الذى ختمت به يونس ، ومثلها خاتمة هود .

ووصف القرآن ومدحه الذى ختم به يوسف .

والرد على من كذب الرسول الذى ختم به الرعد .

ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة إبراهيم : [هذا بلاغ للناس] الآية ، ومثلها خاتمة الأحقاف ، وكذا خاتمة الحجر بقوله :[واعبد ربك حتى يأتيك اليقين] ، وهو مفسر بالموت ، فإنها فى غاية البراعة وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدئت بأهوال القيامة ، وختمت بقوله : [فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] .

وأنظر براعة آخر آية نزلت ، وهى قوله : [واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله] وما فيها من الإشعار بالاخرية المستلزمة بالوفاة .

وكذلك آخر سورة نزلت وهى سورة النصر فيها الأشعار بالوفاة ، كما أخرج البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، أن عمر سألهم عن قوله : [إذا جاء نصر الله والفتح] فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : ما تقول يا بن عباس ؟ قال : أجل ضرب لمحمد نعيت له نفسه .

وأخرج أيضاً عنه قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ،فقال : لم تدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله فقال عمر : إنه من قد علمتم ، ثم دعاهم ذات يوم فقال : ما تقولون فى قول الله : [إذا جاء نصر الله والفتح] ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يا بن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به ، قال : [إذا جاء نصر الله والفتح] ، وذلك علامة أجلك ، [فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً] فقال عمر : إنى لا أعلم منها إلا ما تقول.

فى مناسبة الآيات والسور

المناسبة فى اللغة المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها ، عام أو خاص ، عقلى أو حسى أو خيالى أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهنى ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه .

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك

الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء .

وقد أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان فى كتاب سماه « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » والشيخ برهان الدين البقاعى فى كتاب سماه « نظم الدرر فى تناسب الآى والسور » وللسيوطى جزء لطيف سماه « تناسق الدرر فى تناسب السور » .

وعلم المناسبة علم شريف ، قل اعتناء المفسرين به لدقته وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين ، وقال فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : المناسبة علم حسن لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث ، فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة ، فى أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض .

تنبيـــه

من الآيات ما أشكلت مناسبتها لما قبلها ، من ذلك قوله تعالى : فى سورة القيامة : [لا تحرك به لسانك لتعجل به] الآيات ، فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جداً ، فإن السورة كلها فى أحوال القيامة ، حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شىء . وفى الصحيح أنها نزلت فى تحريك النبى صلى الله عليه وسلم لسانه حالة نزول الوحى عليـه .

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات .

منها : أنه تعالى لما ذكر القيامة ، وكان من شأن من يقصّر عن العمل لها حب العاجلة ، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة ، فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه ، وهو الإصغاء إلى الوحى ، وتفهم ما يرد منه ، والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك . فأمر بألا يبادر إلى التحفظ ، لأن تحفيظه مضمون على ربه ، وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضى فيتبع ما اشتمل عليه . ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه ، فقال : [كلا] وهى كلمة ردع كأنه قال : « بل أنتم يا بنى آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون فى كل شىء ومن ثم تحبون العاجلة » .

ومنها : أن « النفس » لما تقدم ذكرها فى أول السورة عدل إلى ذكر « نفس » المصطفى ، كأنه قيل هذا شأن النفوس ، وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس فلتأخذ بأكمل الأحوال .

ومن ذلك قوله تعالى : [يسألونك عن الأهلة] الآية ، فقد يقال : أى رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت ؟ .

وأجيب : بأنه من باب الاستطراد ، لما ذكر أنها مواقيت للحج وكان هذا من أفعالهم فى الحج . كما ثبت فى سبب نزولها — ذكر معه من باب الزيادة فى الجواب على ما فى السؤال ، كما سئل عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

ومن ذلك قوله تعالى : [ولله المشرق والمغرب] الآية ، فقد يقال

ما هو وجه اتصاله بما قبله وهو قوله : [ومن أظلم ممن منع مساجد الله] الآية .

وقال الشيخ أبو محمد الجوينى فى تفسيره : سمعت أبا الحسن الدهان يقول : وجه اتصاله ، هو أن ذكر تخرب بيت المقدس قد سبق أى فلا يجرمنكم ذلك ، واستقبلوه فإن لله المشرق والمغرب ،

فى إعجاز القـــرآن

أعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة ، وهى إما حسية وإما عقلية ، وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم ، وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر كما قال صلى الله عليه وسلم : «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » أخرجه البخارى .

قيل : إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون ، يدل على صحة دعواه .

وقيل : المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصى موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض

بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باق ، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً .

ولا خلاف بين العقلاء ، أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك .

ولما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء ، وتحداهم على أن يأتوا بمثله ، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا ، كما قال تعالى : [فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين] ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى :[أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله] ، ثم تحداهم بسورة فى قوله : [أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بسورة مثله] الآية ، ثم تحداهم فى قوله : [وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله] الآية ، فلما عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء ، نادى عليهم باظهار العجز وإعجاز القرآن ، فقال : [قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا] ، هذا هم الفصحاء اللد ، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره ، وإخفاء أمره ، فلو كان فى مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعاً للحجة . ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدّث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه ، بل عدلوا إلى العناد تارة ، وإلى الاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا « سحر » وتارة قالوا : « شعر » وتارة قالوا : « أساطير الأولين » كل ذلك من التحير والإنقطاع .

يقول الوليدين بن المغيرة عن القرآن لما سمعه وطلب منه قومه

أن يقول فى شأن القرآن كلمة ترضيهم : وماذا أقول ! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيدة ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وأنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وأنه ليحطم ما تحته .

فصـــل
وجه إعجازه

قال الإمام فخر الدين : وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب ،

قال الزملكانى : وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به ، لا مطلق التأليف .

وقال ابن عطية : الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه ، أنه بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، وذلك أن الله أحاط بكل شىء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فإذا رتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الاولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها الإتيان بمثله ، فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ، ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظه ، ثم أدير لسان العرب

على لفظه أحسن منها لم يوجد ونحن تتبين لنا البراعة فى أكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق، وجودة القريحة ، وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة ، كما قامت الحجة فى معجزة موسى بالسحرة ، وفى معجزة عيسى بالأطباء . فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبدع ماتكون فكان السحر قد انتهى فى مدة فى زمن النبى الذى أراد إظهاره .

موسى إلى غايته ، وكذلك الطب فى زمن عيسى ، والفصاحة فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم .

تنبيهات

الأول : اختلف فى تفاوت القرآن فى مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم على أنه فى أعلى مراتب البلاغة ، بحيث لا يوجد فى التراكيب ما هو أشد تناسباً ولا اعتدالا إلى إفادة ذلك المعنى منه ، فاختار القاضى المنع ، وأن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا . وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض فى القرآن الأفصح والفصيح .

الثانى : قيل الحكمة فى تنزيه القرآن عن الشعر الموزون ، مع أن الموزون من الكلام ، رتبته فوق رتبة غيره ، أن القرآن منبع الحق ، ومجمع الصدق ، وقصارى أمر الشاعر التخييل ، بتصور الباطل فى صورة الحق والإفراط فى الاطراء والمبالغة فى الذم والايذاء دون إظهار الحق ، وإثبات الصدق ، ولهذا نزه الله نبيه عنه ، ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدية فى أكثر الأمر إلى البطلان

والكذب شعرية وقال بعض الحكماء : لم ير متدين صادق اللهجة ، مغلق فى شعره .

عناية العلماء بالعلوم المستنبطة من القرآن

قال تعالى : [ما فرطنا فى الكتاب من شيء] وقال : [ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شى] .

وقال صلى الله عليه وسلم «ستكون فتن» ، قيل : وما المخرج منها ؟ قال : «كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ، ما بينكم» أخرجه الترمذى وغيره وأخرج سعيد بن منصور ، عن ابن مسعود ، قال : «من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين» قال البيهقى : يعنى أصول العلم وأخرج البيهقى عن الحسن ، قال : أنزل الله مائة وأربعة كتب ، أودع علومها أربعة منها : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان .

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن .

وقال أيضاً : جميع ما حكم به صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم : «إنى لا أحل إلا ما أحل الله ، ولا أحرم إلا ما حرم الله فى كتابه» أخرجه بهذا اللفظ الشافعى فى الام .

وقال سعيد بن جبير : ما بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه فى كتاب الله .

وقال ابن مسعود : إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله تعالى . أخرجهما ابن أبى حاتم .

وقال الشافعى أيضاً : ليست تنزل بأحد فى الدين نازلة إلا فى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها ، فإن قيل : من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة ، قلنا : ذلك مأخوذ من كتاب الله فى الحقيقة ، لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفرض علينا الأخذ بقوله .

وقال الشافعى مرة بمكة : سلونى عما شئتم أخبركم عنه فى كتاب الله فقيل له : ما تقول فى المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : بسم الله الرحمن الرحيم [وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا] .

وحدثنا سفيان بن عيينة ، عن عبدالملك بن عمير ، عن ربعى بن حراش ، عن حذيفة بن اليمان ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقتدوا بالذين من بعدى أبو بكر وعمر .

وحدثنا سفيان ، عن مسعر بن كدام ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، عن عمر بن الخطاب ، أنه أمر بقتل المحرم الزنبور .

وأخرج البخارى ، عن ابن مسعود ، أنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله تعالى ، فبلغ ذلك إمرأة من بنى أسد ، فقالت له : إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ! فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى كتاب الله تعالى ! فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحتين فما وجدت فيه كما تقول ، قال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأت : [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه .

وحكى ابن سراقه فى كتاب الإعجاز ، عن أبى بكر بن مجاهد ،

أنه قال يوماً : ما من شيء فى العالم إلا وهو فى كتاب الله ، فقيل له : فأين ذكر الخانات فيه ؟ فقال فى قوله : [ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونه فيها متاع لكم] فهى الخانات .

وقال ابن برهان : ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو فى القرآن به أو فيه أصله ، قرب أو بعد ففهمه من فهمه ، وعمه عنه من عمه ، وكذا كل ما حكم به أوقضى به ، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده ، وبذل وسعه ، ومقدار فهمه .

وقال غيره : ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثلاثا وستين سنة من قوله فى سورة المنافقين : [ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها] فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده .

وقال ابن أبى الفضل المرسى فى تفسيره : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس ، حتى قال : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضائل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه . فاعتنى قوم بضبط لغاته ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه ، وعدد سجداته ، والتعليم عند كل عشر آيات ، إلى غير ذلك

من حصر الكلمات المتشابهة ، والآيات المتماثلة ، من غير تعرض لمعانيه ، ولا تدبر لما أودع فيه ، فسموا القراء .

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها . وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال ، واللازم والمتعدى ورسوم خط الكلمات ، وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة .

واعتنى المفسرون بألفاظه ، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ، ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفى منه ، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعانى ، وأعمل كل منهم فكره ، وقال بما اقتضاه نظره .

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى : [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه ، وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسموا هذا العلم بأصول الدين .

وتأملت طائفة منهم معانى خطابه ، فرأت منها ما يقتضى العموم ، ومنها ما يقتضى الخصوص ، إلى غير ذلك ، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز ، وتكلموا فى التخصيص والأخبار ، والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه ، والأمر والنهى والنسخ . إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء ، وسموا هذا الفن أصول الفقه .

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر ، فيما فيه من الحلال

والحرام وسائر الأحكام ، فأسسوا أصوله ، وفرعوا فروعه ،وبسطوا القول فى ذلك بسطاً حسناً ، وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً .

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم ، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ ، التى تقلقل قلوب الرجال ، وتكاد تدكدك الجبال ، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير ، وذكر الموت والمعاد ، والنشر والحشر والحساب ، والعقاب والجنة والنار فصولا من المواعظ ، وأصولا من الزواجر ، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ .

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير ، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان ، وفى منامى صاحبى السجن، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة ، وسموه تعبير الرؤيا . واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب ،فإنعز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال ، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذى أشار إليه القرآن بقوله : [وأمربالعرف]

وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها ، وغير ذلك علم الفرائض ، واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول ، واستخرجوا منه أحكام الوصايا ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة فى الليل والنهار ، والشمس والقمر ومنازله ، والنجوم والبروج وغير ذلك . فاستخرجوا منه علم المواقيت .

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزاله اللفظ وبديع النظم وحسن السباق ، والمبادى والمقاطع والمخالص ، والتلوين فى الخطاب والاطناب والإيجاز وغير ذلك ،فاستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة ، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها ،مثل الفناء ، والبقاء والحضور والخوف ، والهيبة ، والأنس ، والوحشية ، والقبض ،والبسط ،وما أشبه ذلك ، هذه الفنون التى أخذتها الملة الإسلامية منه .

قال الغزالى وغيره : آيات الأحكام خمسمائة آية ، وقال بعضهم مائة وخمسون ، قيل : ولعل مرادهم المصرح به ، فان آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام .

قال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام فى كتاب الإمام فى أدلة الأحكام معظم آى القرآن لا يخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة ، وأخلاق جميلة .

قال : ويستدل على الأحكام تارة بالصيغة وهو ظاهر ، وتارة بالأخبار مثل : [أحل لكم] [حرمت عليكم الميتة] [كتب عليكم الصيام] وتارة بما رتب عليها فى العاجل أو الآجل من خير أو شر ، أو نفع أو ضر ، وقد نوع الشارع ذلك أنواعاً كثيرة ترغيباً لعباده ، وترهيبا وتقريباً إلى أفهامهم ، فكل فعل عظمه الشرع أو مدحه أو مدح فاعله لأجله أو أحبه أو أحب فاعله ، أو رضى به أو رضى عن فاعله ، أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب ، أو أقسم به أو بفاعله كالإقسام بالشفع والوتر وبخيل المجاهدين ، وبالنفس اللوامة أو نصبه سبباً لذكره لعبده أو لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل ، أو لشكره له ،

أو لهدايته إياه ، أو لإرضاء فاعله ، أو لمغفرة ذنبه وتكفير سيئاته أو لقبوله ، أو لنصرة فاعله ، أو بشارته ، أو وصف فاعله بالطيب ، أو وصف الفعل بكونه معروفاً ، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله أو وعده بالأمن ، أو نصب سبباً لولايته ، أو أخبر عن دعاء الرسول بحصوله أو وصفه بكونه قربة ، أو بصفة مدح ، كالحياة والنور والشفاء ، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب .

وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذمه أو ذم فاعله ، أو عتب عليه ؛ أو مقت فاعله أو لعنه ، أو نفى محبته أو محبة فاعله ، أو الرضا به أو عن فاعله ، أو شبه فاعله بالبهائم أو بالشياطين ، أو جعله مانعاً من الهدى أو من القبول ، أو وصفه بسوء أو كراهة ، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه أو جعل سبباً لنفى الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل ، أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية ، أو وصف بخبث أو رجس أو نجس ، أو بكونه فسقاً أو إثماً ، أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب ، أوزوال نعمة ، أو حلول نقمة ، أو حد من الحدود ، أو قسوة أو خزى أو ارتهان نفس ، أو لعداوة الله أو محاربته أو لاستهزائه أو سخريته . أو جعله الله سبباً لنسيانه فاعله ، أو وصفه نفسه بالصبر عليه أو بالحلم ، أو بالصفح عنه ، أو دعا إلى التوبة منه ، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار ، أو نسبه إلى عمل الشيطان ، أو تزيينه . أو تولى الشيطان لفاعله ، أو وصفه بصفة ذم ككونه ظلماً أو بغياً ، أو عدواناً أو إثماً أو مرضاً ، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله ، أو شكوا إلى الله من فاعله ، أو جاهروا فاعله بالعداوة ، أو نهوا عن الأسى والحزن عليه ، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلا أو آجلا أو رتب عليه حرمان

الجنة وما فيها ، أو وصف فاعله بأنه عدو لله ، أو بأن الله عدوه ، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله ،أو حمل فاعله إثم غيره أو قيل فيه : لا ينبغى هذا أو لا يكون ، أوأمر بالتقوى عند السؤال ، عنه ، أو أمر بفعل مضاده ، أو بهجر فاعله ، أو تلاعن فاعلوه فى الآخرة أو تبرأ بعضهم من بعض أو دعا بعضهم على بعض ، أو وصف فاعله بالضلالة ، وأنه ليس من الله فى شيء ، أو ليس من الرسول وأصحابه ، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح ، أو جعله سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين ، أو قيل : هل أنت منته ، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله ، أو رتب عليه إبعادا أو طرداً ، أو لفظة «قتل من فعله » أو «قاتله الله » أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ولا يزكيه ، ولا يصلح عمله ، ولا يهدى كيده أو لا يفلح ، أو قيض له الشيطان ، أو جعل سبباً لازاغة قلب فاعله أو صرفه عن آيات الله وسؤاله عن علة الفعل فهو دليل على المنع من الفعل ، ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة .

وتستفاد الاباحة من لفظ الاحلال ، ونفى الجناح والحرج والاثم والمؤاخذة ، ومن الإذن فيه والعفو عنه ، ومن الامتنان بما فى الأعيان من المنافع ، ومن السكوت عن التحريم ، ومن الإنكار على من حرم الشيء من الأخبار بأنه خلق أو جعل لنا ، والأخبار عن فعل من قبلنا غير ذام لهم عليه ، فإن اقترن بإخباره مدح ،دل على مشروعيته وجوباً واستحباباً . انتهى كلام الشيخ عز الدين .

وقال غيره : قد يستنبط من السكوت ، وقد استدل جماعة على أن القرآن غير مخلوق بأن الله ذكر الإنسان فى ثمانية عشر موضعاً وقال :

إنه مخلوق ، وذكر القرآن فى أربعة وخمسين موضعاً ولم يقل إنه مخلوق،ولما جمع بينهما غاير ، فقال : [الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان] .

من أمثـــال القـــرآن

قال تعالى : [ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون] ، وقال تعالى : [وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون] . .

وأخرج البيهقى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال » .

قال الماوردى : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس فى غفله عنه لاشتغالهم بالأمثال ، وإغفالهم الممثلات ، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام ، والناقة بلا زمام .

وقال غيره : قد عده الشافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن ، فقال : ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته ، المبينة لاجتناب معصيته .

وقال الشيخ عز الدين : إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيراً ووعظاً ، فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب ، أو على إحباط عمل ، أو على مدح أو ذم أو نحوه ، فإنه يدل على الأحكام ،

فصـــل
(أمثال القرآن)

أمثال القرآن قسمان : **ظاهر** مصرح به ، **وكامن** لا ذكر للمثل فيه ، فمن أمثلة الأول قوله تعالى : [مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً] الآيات ، ضرب فيها للمنافقين مثلين : مثلا بالنار ، ومثلا بالمطر .

ومنها قوله تعالى : [أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها . . .] الآية ، أخرج ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس ، قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، [فأما الزبد فيذهب جفاء] ، وهو الشك ، [وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض] وهو اليقين كما يجعل الحلى فى النار ، فيؤخذ خالصه ، ويترك خبثه فى النار كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك .

وأخرج عن عطاء قال : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر .

وأخرج عن قتادة ، قال : هذه ثلاثة أمثال ضربها الله فى مثل واحد، يقول : كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ، ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله ، وكما مكث هذا الماء فى الأرض فأمرعت وربت بركته ، وأخرجت نباتها ، وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار ، فأذهب خبثه ، كذلك يبقى الحق لأهله ، وكما اضمحل خبث هذا الذهب حين أدخل فى النار ، كذلك يضمحل الباطل عن أهله .

ومنها قوله تعالى : [والبلد الطيب . .] الآية ، أخرج ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس ، قال . هذا مثل ضربه الله للمؤمن . يقول : هو طيب وعمله طيب ، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب ،

والذى خبث ضرب مثلا للكافر ، كالبلد السبخة المالحة ، والكافر هو هو الخبيث وعمله خبيث .

ومنها قوله تعالى : [أيود أحدكم أن تكون له جنة ...] الآية أخرج البخارى عن ابن عباس قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ [أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب] قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم ! فقال ابن عباس : فى نفسى منها شيء فقال : يابن أخى ، قل ولا تحقر نفسك : ضربت مثلا لعمل ، قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غنى يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله .

وأما الكامنة ، فقال الماوردى : سمعت أبا اسحق إبراهيم ابن مضارب ابن إبراهيم ، يقول : سمعت أبى ، يقول : سألت الحسن ابن الفضل فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد فى كتاب الله « خير الأمور أوساطها » ؟ قال نعم : فى أربعة مواضع : قوله تعالى : [لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك] وقوله تعالى : [والذ ين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً] .

وقوله تعالى : [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط]

وقوله تعالى : [ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا] فهل تجد فى كتاب الله «من جهل شيئاً عاداه » ؟ قال : نعم فى موضعين [بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه] ، [وإذ لم يهتدوا به

فسيقولون هذا إفك قديم] . . فهل تجد فى كتاب الله : « احذر شر من أحسنت إليه » ؟ .

قال : نعم : [وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله] .

فهل تجد فى كتاب الله : « ليس الخبر كالعيان » ؟ قال فى قوله تعالى : [قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمن قلبي] . قلت : فهل تجد « فى الحركات البركات » ؟ قال : فى قوله تعالى : [ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة] قلت : فهل تجد « كما تدين تدان » ؟ .

قال فى قوله تعالى : [من يعمل سوءا يجز به] قلت : فهل تجد فيه قولهم : « حين تقلى تدرى » ؟ قال : [وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا] قلت : فهل تجد فيه قولهم :« لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » ؟ قال : [هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل] . قلت : فهل تجد فيه « من أعان ظالماً سلط عليه » ؟قال : [كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير] قلت : فهل تجد فيه قولهم :« لا تلد الحية إلا حية » قال : قوله تعالى : [ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً] ، قلت : هل تجد فيه : « للحيطان آذان » ؟ قال : [وفيكم سماعون لهم] ، قلت : فهل تجد فيه : « الجاهل مرزوق والعالم محروم » ؟ قال : [من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا] قلت : فهل تجد فيه الحلال لايأتيك إلا قوتاً ، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً » [إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم]

فائـــدة

عقد جعفر بن شمس الخلافة فى كتاب الآداب بابا فى ألفاظ من القرآن ، جارية مجرى المثل ، وهذا هو النوع البديعى المسمى بإرسال المثل وأورد من ذلك قوله تعالى : [ليس لها من دون الله كاشفة] ، [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون] ، [الآن حصص الحق] ، [وضرب لنا مثلا ونسى خلقه] [ذلك بما قدمت يداك] ، [قضى الأمر الذى فيه تستفتيان] ، [أليس الصبح بقريب] ، [وحيل بينهم وبين ما يشتهون] [لكل نبإ مستقر] ، [ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله] ، [قل كل يعمل على شاكلته] ، [وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم] ، [كل نفس بما كسبت رهينة] ، [ما على الرسول إلا البلاغ] ، [ماعلى المحسنين من سبيل] [هل جزاء الإحسان إلا الاحسان] ، [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة] [الآن وقد عصيت قبل] ، [تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى] [ولا ينبئك مثل خبير] ، كل حزب بما لديهم فرحون] ، [ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم] ، [وقليل من الشكور] ، [لا يكلف الله نفساً إلا وسعها] ، ، [قل لا يستوى الخبيث والطيب] . [ظهر الفساد فى البر والبحر] ، [ضعف الطالب والمطلوب] ، [لمثل هذا فليعمل العاملون] [وقليل ما هم] ، [فاعتبروا يا أولى الأبصار] فى ألفاظ أخر

فى أقسام القـــرآن

أفرده ابن القيم بالتصنيف فى مجلد سماه التبيان ، والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده ، حتى جعلوا مثل : [والله يشهد إن المنافقين لكاذبون] قسما ، وإن كان فيه إخبار بشهادة لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمى قسما .

وقد قيل : ما معنى القسم منه تعالى ، فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم ، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً .

وأجاب أبو القاسم القشيرى بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك لأن الحكم يفصل باثنين : إما بالشهادة وإما بالقسم . فذكر تعالى فى كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة ، فقال : [قل إى وربى إنه لحق] ،[شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم]

وعن بعض العرب أنه لما سمع قوله تعالى : [وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق] . صرخ وقال من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين .

ولا يكون القسم إلا باسم معظم ، وقد أقسم الله تعالى : بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع :

الآية المذكورة بقوله : [قل إى وربى] ، [قل بلى وربى لتبعثن [فوربك لنحشرنهم والشياطين] ، [فوربك لنسألنهم أجمعين] [فلا وربك لا يؤمنون] ، [فلا أقسم برب المشارق والمغارب] .

والباقى كله قسم بمخلوقاته ، كقوله تعالى : [والتين والزيتون] [والصافات] ،[والشمس] ، [والليل] ، [والضحى] ، [فلا أقسم بالخنس] ، فإن قيل : كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهى عن القسم بغير الله ؟ قلنا : أجيب عنه بأوجه :

أحدها : أنه على حذف مضاف ، أى ورب التين ورب الشمس وكذا الباقى .

والثانى : إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء ، وتقسم بها ، فنزل القرآن على ما يعرفونه .

الثالث : أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهوفوقه ، والله تعالى ليس شيء فوقه ، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارىء وصانع .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن الحسن ، قال : إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله .

وقال العلماء : أقسم الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : [لعمرك] لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : ما خلق الله ولا ذرأ ولا برء نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال : [لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون] ثم هو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التى تجب على الخلق معرفتها ، وتارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على أن الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الإنسان .

فالأول كقوله : [والصافات صفا] إلى قوله : [إن إلهكم لواحد].

والثانى كقوله : [فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم] .

والثالث كقوله : [يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين] [والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى . . .] الآيات .

والرابع كقوله : [والذاريات] إلى قوله : [إنما توعدون لصادق ،

وإن الدين لواقع] ، [والمرسلات] إلى قوله : [إنما توعدون لواقع].

والخامس كقوله : [والليل إذا يغشى] إلى قوله : [إن سعيكم لشتى] الآيات [والعاديات] إلى قوله : [إن الإنسان لربه لكنود] ، [والعصر ، إن الإنسان لفى خسر] ، [والتين] إلى قوله [لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ...] الآيات [لا أقسم بهذا البلد] إلى قوله : [لقدخلقنا الإنسان فى كبد] .

فى جدل القـــرآن

اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة . وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادة العرب ، دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم] .

والثانى : إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ، ، ولم يكن ملغزا ، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ، ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم ، وتلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء .

ومن أمثلة ذلك أنه استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسمى بضروب :

أحدها : قياس الإعادة على الابتداء ، كما قال تعالى : [كما بدأكم

تعودون] ، [كما بدأنا أول خلق نعبده] ، [أفعيينا بالخلق الأول] .

ثانيها : قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى ، قال تعالى : [أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر ...] الآية .

ثالثها : قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات .

رابعها : قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر . وقد روى الحاكم وغيره أن أبى بن خلف جاء بعظم ففته ، فقال : أيحيى الله هذا بعد ما بلى ورمّ ، فأنزل الله : [قل يحييها الذى أنشأها أول مرة] ، فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى ، والجمع بينهما بعلة الحدوث ، ثم زاد فى الحجاج بقوله : [الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً] ، وهذه فى غاية البيان فى رد الشىء إلى نظيره ، والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما .

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد . بدلالة التمانع المشار إليها فى قوله : [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا] ، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ، ولا ينسق على أحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته ، فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزىء الفعل إن فرض الإتفاق ، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الإختلاف وإما ألا تنفذ إرادتهما ، فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، والإله لا يكون عاجزاً .

من الأنواع المصطلح عليها فى علم الجدل القول بالموجب ، قال ابن أبى الأصبع : وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه ، وهو قسمان :

أحدهما : أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شىء أثبت له حكم

فيثبتها لغير ذلك الشيء كقوله تعالى: [يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة] الآية : فـ « الأعز » وقعت فى كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، و « الأذل » عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله فى الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون ، فكأنه قيل : صحيح ذلك ، ليخرجن الأعز منها الأذل ، لكن هم الأذل المخرج ، والله ورسوله الأعز المخرج .

الثانى : حمل لفظ وقع فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، ولم أر من أورد له مثالا من القرآن ، وقد ظفرت بآية منه وهى قوله تعالى : [ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم] .

ومنها المناقضة ، وهى تعليق أمر على مستحيل ، إشارة إلى استحالة وقوعه كقوله تعالى:[ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط] .

ومنها مجاراة الخصم ليعثر ، بأن يسلم بعض مقدماته ، حيث يراد تبكيته وإلزامه ، كقوله تعالى : [قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم] الآية فقولهم :[إن نحن إلا بشر مثلكم] الاية فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين بالبشرية ، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم ، وليس مرادا ، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر ، فكأنهم قالوا : ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره ، ولكن هذا لا ينافى أن أن يمن الله علينا بالرسالة .

فيما وقع فى القرآن من الأسماء والكنى والألقـــاب

فى القرآن من أسماء الأنبياء والمرسلين خمس وعشرون ، وهم مشاهيرهم آدم أبو البشر ، نوح ، إدريس ، إبراهيم ، إسماعيل . وهو أكبر ولد إبراهيم . إسحاق — ولد بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة . ، ، يعقوب — عاش مائة وسبعا وأربعين سنة . ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، لوط : قال ابن اسحاق : هو لوط بن هارن بن آزر ، هود ، صالح ، شعيب ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ولده ، وأيوب ، ذوالكفل يونس ، إلياس ، اليسع ، زكريا ، يحيى ولده ، وعيسى .

أسماء الملائكة

وفيه من أسماء الملائكة :

١ ، ٢ : جبريل وميكائيل

٣ ، ٤ : وهاروت وماروت .

أسماء الصحابة وغـــيرهم

وفيه من أسماء الصحابة : زيد بن حارثة .

وفيه من أسماء المتقدمين غير الأنبياء والرسل : عمران أبو مريم وعزير ، وتبع ، ولقمان ، ويوسف الذى فى سورة غافر ويعقوب فى أول سورة مريم ، وتقى فى قوله فيها : [إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً] قيل : إنه اسم رجل كان من أمثل الناس ، أى إن كنت فى الصلاح مثل تقى ، حكاه الثعلبى .

وفيه من أسماء النساء : مريم لا غير ، وقيل : إن بعلا فى قوله [أتدعون بعلا] اسم إمرأة كانوا يعبدونها ، حكاه ابن عساكر .

وفيه من اسماء الكفار : قارون ، وآزر .

وفيه من أسماء الجن : أبو هم إبليس .

وفيه من أسماء القبائل : يأجوج ومأجوج ، وعاد ، وثمود ، ومدين وقريش ، والروم .

وفيه من الأقوام بالإضافة : قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم تبع ، وقوم إبراهيم ، وأصحاب الأيكة — وقيل : هم مدين — وأصحاب الرس، وهم بقية من ثمود ، قاله ابن عباس . وقال عكرمة : هم أصحاب ياسين .

وقال قتادة : هم قوم شعيب ، وقيل : هم أصحاب الأخدود، واختاره ابن جرير .

وفيه من أسماء الأصنام التى كانت أسماء لأناس :ود،وسواع،ويغوث ويعوق ، ونسر ، وهى أصنام قومنوح ، واللات والعزى ومناة ، وهى أصنام قريش ، وكذا الرجز فيمن قرأ بضم الراء ، ذكره الأخفش فى فى كتاب الواحد والجمع أنه اسم صنم والجبت والطاغوت .

وفيه من أسماء البلاد والبقاع والأمكنة والجبال : بكة اسم لمكة ، والمدينة ، وبدر ، وأحد ، وحنين ، وجمع ، والمشعر الحرام ، ومصر وبابل ، والأيكة ، والحجر ، والأحقاف ، وطور سيناء ، والجودى ، وطوى : اسم الوادى ، والكهف والرقيم ، والعرم ، وحرد ، والصريم : أخرج ابن جبير عن سعيد بن جبير أنها أرض باليمن تسمى بذلك ، وق : وهو جبل محيط بالأرض ، و الجزر : هو اسم أرض ، والطاغية : قيل اسم البقعة التى أهلكت بها ثمود ، حكاهما الكرمانى .

وفيه من أسماء الأماكن الأخروية : الفردوس ، وهو أعلى مكان

فى الجنة ، وعليون ، قيل أعلى مكان فى الجنة ، والكوثر نهر فى الجنة ، وسلسبيل وتسنيم : عينان فى الجنة ، وسجين : اسم لمكان أرواح الكفار ، وصعود : جبل فى جهنم ، كما أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد مرفوعاً .

وغى ، وآثام ، وموبق ، والسعير ، وسائل ، وسحق ، أودية فى جهنم ، ويحموم : دخان أسود .

وفيه من أسماء الكواكب : الشمس ، والقمر ، والطارق ، والشعرى ، فى أسماء الطير ، قال بعضهم : سمى الله فى القرآن عشرة أجناس من الطير : السلوى ، والبعوض ، والذباب ، والنحل ، والعنكبوت ، والجراد ، والهدهد ، والغراب ، وأبابيل ، والنمل .

أما الكنى ، فليس فى القرآن منها غير أبى لهب ، واسمه ، عبد العزى

فوائـــد

يستحب تقبيل المصحف ، لأن عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه كان يفعله ، وبالقياس على تقبيل الحجر الأسود ذكره بعضهم ولأنه هدية من الله تعالى ، فشرع تقبيله كما يستحب تقبيل الولد الصغير .

وعن أحمد ثلاث روايات : الجواز ، والاستحباب ، والتوقف ، وإن كان فيه رفعة وإكرام لأنه لا يدخله قياس ، ولهذا قال عمر فى الحجر : لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

يستحب تطييب المصحف ، وجعله على كرسى ، ويحرم توسده لأن فيه إذلا لا وامتهاناً . قال الزركشى : وكذا مد الرجلين إليه .

أخرج ابن أبى داود فى المصاحف ، عن سفيان ، أنه كره أن تعلق

المصاحف . وأخرج عن الضحاك ، قال : لا تتخذوا للحديث كراسى ككراسى المصاحف .

يجوز تحليته بالفضة إكراماً له على الصحيح ، أخرج البيهقى عن الوليد بن مسلم ، قال : سألت مالكاً عن تفضيض المصاحف ، فأخرج إلينا مصحفاً ، فقال : حدثنى أبى عن جدى أنهم جمعوا القرآن فى عهد عثمان ، وأنهم فضضوا المصاحف على هذا أو نحوه .

أما بالذهب فالأصح جوازه للمرأة دون الرجل ، وخص بعضهم الجواز بنفس المصحف ، دون غلافه المنفصل عنه ، والأظهر التسوية .

إذا احتيج إلى تعطيل بعض أوراق المصحف لبلى ونحوه ، فلا يجوز وضعها فى شق أو غيره لأنه قد يسقط ويوطأ ، ولا يجوز تمزيقها لما فيه من تقطيع الحروف وتفرقة الكلم ، وفى ذلك إزراء بالمكتوب ، كذا قال الحليمى .

قال : وله غسلها بالماء ، وإن أحرقها بالنار فلا بأس ، أحرق عثمان مصاحف كان فيها آيات وقراءات منسوخة ، ولم ينكر عليه . البقية ١٥٢

بقية ص ١٤٩

ولا كافان كذلك إلا [مناسككم] ، [ما سلككم] .

ولا غينان كذلك إلا [ومن يبتغ غير الإسلام] .

ولا آية فيه ثلاثة وعشرون كافا إلا آية الدين .

ولا آيتان فيهما ثلاثة عشر وقفا إلا آية المواريث .

ولا سورة ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا والعصر إلى آخرها

ولا سورة إحدى وخمسون آية ، فيها اثنان وخمسون وقفاً إلا سورة الرحمن .

وقال أبو عبد الله الخبازى المقرئ : أول ما وردت على السلطان

محمود بن ملكشاه سألني عن آية أولها غين قلت : ثلاثة [غافر الذنب] وآيتان بخلف [غلبت الروم] [غير المغضوب عليهم] ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر : فى القرآن أربع شدات متوالية فى قوله : [نسيا] ، [رب السموات] [فى بحر لُّجيّ يغشاه موج] ،[قولا من رب رحيم] ، [ولقد زينا السماء] .

فوائد مختلفة

أخرج السلفى فى المختار من الطيوريات ، عن الشعبى ، قال : لقى عمر ابن الخطاب ركباً فى سفر ، فيهم ابن مسعود ، فأمر رجلا يناديهم : من أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفج العميق ،نريد البيت العتيق ، فقال عمر : إن فيهم لعالماً ، وأمر رجلا أن يناديهم : أى القرآن أعظم ؟ فأجابه عبدالله [الله لا إله إلا هو الحى القيوم] قال :نادهم :أى القرآن أحكم ؟ فقال ابن مسعود : [إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى] قال : نادهم أى القرآن أجمع ؟ فقال : [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] فقال : نادهم : أى القرآن أحزن ؟ فقال : [من يعمل سوءاً يجزبه] فقال : نادهم : أى القرآن أرجى ؟ فقال : [قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم] الآية ، فقال : أفيكم ابن مسعود ؟ قالوا : نعم . أخر جه عبد الرزاق فى تفسيره بنحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال :سئل ابن عباس: أى آية أرجى فى كتاب الله ؟ قال : قوله : [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : سألت أبا برزة الأسلمى عن أشد آية فى كتاب الله تعالى على أهل النار ، فقال : [فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً] .

وقال بعضهم : أطول سورة فى القرآن البقرة ، وأقصرها الكوثر ، وأطول آية فيه آية الدَّين ، وأقصرها آية فيه [والضحى] ، [والفجر] وأطول كلمة فيه رسماً [فاسقيناكموه] .

وفى القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف المعجم [ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة ..] الآية [محمد رسول الله ...] الآية .

وليس فيه جاء بعد جاء بلا حاجز إلا فى موضعين [عقدة النكاح حتى] [لا أبرح حتى] .

والوليد بن عتبة . [إمرأة تملكهم] هى بلقيس بنت شراحيل .

[الذى عنده علم] هو آصف بن برخيا كاتبه [إمرأة فرعون] آسية بنت مزاحم [أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً] نزلت فى على ابن أبى طالب والوليدبن عقبة ، [قول التى تجاد لك] هى خولة بنت ثعلبة [فى زوجها] هو أوس بن الصامت . [أسر النبى إلى بعض أزواجه] هى حفصة [نبأت به] أخبرت عائشة [إن تتوبا] [وإن تظاهرا] هما عائشة وحفصة [وصالح المؤمنين] هما أبو بكر وعمر ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، [ذرنى ومن خلقت وحيداً] هو الوليد بن المغيرة [فلا صدق ولاصلى] الآيات نزلت فى أبى جهل [أن جاءه الأعمى] هو عبدالله بن أم مكتوم [أما من استغنى] هو أمية بن خلف ، وقيل : هو عتبة بن ربيعة .

فى ذكر آيات المبهمات

أعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض ، ونحن نذكر أهم ما ورد فى ذلك :

قوله تعالى : [إنى جاعل فى الأرض خليفة] هو آدم وزوجه حواء .

[ومن الناس من يعجبك قوله] هو الأخنس بن شريق . [ومن الناس من يشرى نفسه] هو صهيب .

[ومنهم من كلم الله] قال مجاهد : موسى [ورفع بعضهم درجات] قال : محمد [إمرأة عمران] حنة بنت فاقوذ [منادياً ينادى للإيمان] هو محمد صلى الله عليه وسلم . [ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت] هو ضمرة بن جندب، [وإنى جار لكم] عنى سراقة بن جعشم . [إذ يقول لصاحبه] هو أبو بكر الصديق [ومنهم من يقول ائذن لى] هو الجد بن قيس .

[ومنهم من يلمزك فى الصدقات] هو ذو الخويصرة [إن نعف عن طائفة منكم] هو مخشى بن حمير . [ومنهم من عاهد الله] هو ثعلبة بن حاطب . [وآخرون اعترفوا بذنوبهم] هم سبعة : أبو لبابة وأصحابه ، وجد بن قيس ، وحرام وأوس ، وكردم ، ومرادس ، [وآخرون مرجون] هم هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك وهم الثلاثة الذين خلفوا [والذين اتخذوا مسجداً ضراراً] قال ابن اسحاق : اثنا عشر من الأنصار [أفمن كان على بينة من ربه] محمد صلى الله عليه وسلم : [ويتلوه شاهد منه] هو جبريل ، وقيل : القرآن ، وقيل : أبو بكر ، وقيل : على . [إنا كفيناك المستهزئين] قال سعيد بن جبير هم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاصى بن وائل ، وأبو زمعة ، والحارث ابن قيس ، والأسود بن عبد يغوث . [ومن يأمر بالعدل [عثمان بن عفان [هذان خصمان] أخرج الشيخان عن أبى ذر ، قال : نزلت هذه الآية فى حمزة وعبيدة بن الحارث وعلى بن أبى طالب وعتبة وشيبة . بقية ص ١٤٩

فى المبهمات

أسباب الإبهام فى القـرآن :

وللإبهام فى القـرآن أسباب :

أحدها : الاستغناء ببيانه فى موضع آخر ، كقوله : [صراط الذين أنعمت عليهم] فإنه مبين فى قوله : [مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين] .

الثانى : أن يتعين لاشتهاره ، كقوله : [وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة] ، ولم يقل : « حواء » لأنه ليس له غيرها . [ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه] والمراد نمرود لشهرة ذلك ، لأنه المرسل إليه .

الثالث : قصد الستر عليه ، ليكون أبلغ فى استعطافه ، نحو : [ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا] الآية ، هو الأخنس بن شريق ، وقد أسلم بعد ، وحسن إسلامه .

الرابع : ألا يكون فى تعيينه كبير فائدة ، نحو : [أو كالذى مر على قرية] ، [وأسألهم عن القرية] .

الخامس : التنبيه على العموم ، وأنه غير خاص ، بخلاف مالوعين ، نحو : [ومن يخرج من بيته مهاجراً] .

والسادس : تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم ، نحو : [ولا يأتل أولوا الفضل] ، [والذى جاء بالصدق وصدق به] ، [إذ يقول لصاحبه] المراد الصديق فى الكل .

السابع : تحقيره بالوصف الناقص ، نحو : [إن شانئك هو الأبتر]

وذكر غيره أن الاحراق أولى من الغسل ، لأن الغسالة قد تقع على الأرض .

روى ابن أبي داود عن ابن المسيب ، قال : لا يقول أحدكم : مصيحف ولا مسيجد ، ما كان لله تعالى فهو عظيم .

ومذهب جمهور العلماء تحريم مس المصحف للمحدث ، سواء كان أصغر أم أكبر ، لقوله تعالى : [لا يمسه إلا المطهرون] ، وحديث الترمذى وغيره : لا يمس القرآن إلا طاهر .

روى ابن ماجه وغيره عن أنس مرفوعاً : سبع يجرى للعبد أجرهن بعد موته وهو فى قبره : من علم علما ، أو أجرى نهراً . أو حفر بئراً ، أوغرس نخلا ، أو بنى مسجداً ، أو ترك ولدا يستغفر له من بعد موته ، أو ورث مصحفاً .

فى معرفة تفسير القرآن وتأويله وبيان الحاجة إليه

واختلف فى التفسير أو التأويل ، فقال أبو عبيدة وطائفة : هما بمعنى .

وقال الراغب : التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل فى المعانى والجمل ، وأكثر ما يستعمل فى الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها .

وقال الزركشي : التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه ، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه الفقه والقراءات ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ

وأما شرفه فلايخفى ، قال تعالى : [يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً] .

عن ابن عباس فى قوله : [يؤتى الحكمة] ، قال : المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ،وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

وأخرج أبو ذر الهروى فى فضائل القرآن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : الذى يقرأ القرآن ولا يحسن تفسيره كالأعرابى بهذ الشعر هذا .

وأخرج البيهقى وغيره من حديث أبى هريرة مرفوعاً : أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه .

وأخرج ابن الأنبارى ، عن أبى بكر الصديق ، قال : لأن أعرب القرآن آية من القرآن أحب إلى من أن أحفظ آية .

وأخرج أيضاً عن عبدالله بن بريدة عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : لو أنى أعلم إذا ساقرت أربعين ليلة ، أعربت آية من كتاب الله لفعلت .

وأخرج أيضاً من طريق الشعبى ، قال : قال عمر : من قرأ القرآن فأعربه ، كان له عند الله أجر شهيد .

قال السيوطى : معنى هذه الآثار عندى إرادة البيان والتفسير لأن إطلاق الأعراب على الحكم النحوى إصطلاح حادث ، ولأنه كان فى سليقتهم لا يحتاجون إلى تعلمه .

قال الأصبهانى : أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث ، أما من جهة

الموضوع ، فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه .

وأما من جهة الغرض ، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا تفنى .

وأما من جهة شدة الحاجة ، فلأن كل كمال دينى أو دنيوى عاجلى أو آجلى ، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهى متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى .

أمهات مآخذ التفسير

أمهاتها أربعة :

الأول : النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الطراز المعلم ، لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع ، فإنه كثير ، ولهذا قال أحمد : ثلاث كتب لا أصل لها : المغازى والملاحم والتفسير ، قال المحققون من أصحابه : مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة ، وإلا فقد صح من ذلك كثير ، كتفسير الظلم بالشرك فى آية الأنعام ، والحساب اليسير بالعرض ، والقوة بالرمى فى قوله : [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة] .

الثانى : الأخذ بقول الصحابى ، فإن تفسيره عندهم بمنزله المرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قاله الحاكم فى مستدركه .

الثالث : الأخذ بمطلق اللغة ، فإن القرآن نزل بلسان عربى وهذا قد ذكره جماعة ، ونص عليه أحمد فى مواضع ، لكن نقل الفضل ابن زياد عنه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر ،

فقال : ما يعجبنى . فقيل : ظاهره المنع ، ولهذا قال بعضهم : فى جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد . وقيل . : الكراهة تحمل على صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة .

الرابع : اشتفسير بالمقتضى معنى الكلام ، والمقتضب من قوة الشرع وهذا هو الذى دعا به النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس ، حيث قال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ، والذى عناه على بقوله : إلا فهماً يؤتاه الرجل فى القرآن . ومن هنا اختلف الصحابة فى معنى الآية ، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره ، ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل ، قال تعالى : [ولا تقف ماليس لك به علم] وقال : [وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون] وقال : [لتبين للناس ما نزل إليهم] فأضاف البيان إليه . وقال صلى الله عليه وسلم : من تكلم فى القرآن برأيه ، فأصاب فقد أخطأ . أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وقال : من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار . أخرجه أبو داود .

قال البيهقى فى الحديث الأول : هذا إن صح ، فإنما اراد - والله أعلم - الرأى الذى يغلب من غير دليل قام عليه ، وأما الذى يسنده برهان فالقول به جائز .

وقال الماوردى : قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره وامتنع من أن يستنبط معانى القرآن باجتهاده ، ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح ، وهذا عدول عما تعبدنا بمعرفته من النظر فى القرآن واستنباط الأحكام ، كما قال تعالى : [لعلمه الذين يستنبطونه منهم] . ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شىء إلا بالاستنباط

ولما فهم الأكثرون من كتاب الله شيئاً . وإن صح الحديث فتأويله أن من تكلم فى القرآن بمجرد رأيه ، ولم يعرج على سوى لفظه ، وأصاب الحق . فقد أخطأ الطريق ، وإصابته اتفاق ، إذا الغرض أنه مجرد رأى لا شاهد له ، وفى الحديث : القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه ، أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس . فقوله : ذلول يحتمل معنيين أحدهما :أنه مطيع لحامليه تنطق به ألسنتهم .

والثانى : أنه موضح لمعانيه حتى لا تقصر عنه أفهام المجتهدين

وقوله : ذو وجوه ، يحتمل معنيين أحدهما :أن من ألفاظه مايحتمل وجوها من التأويل ، والثانى : أنه قد جمع وجوها من الأوامر والنواهى والترغيب والترهيب والتحليل والتحريم » .

وقوله :« فاحملوه على أحسن وجوهه » يحتمل معنيين : أحدهما : الحمل على أحسن معانيه ، والثانى أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص والعفو دون الانتقام ، وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد فى كتاب الله تعالى .

ومنهم من قال : : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التى يحتاج المفسر إليها وهى خمسة عشر علماً :

أحدها : اللغة ، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع . .

الثانى : النحو ، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الأعراب فلابد من اعتباره ، أخرج أبو عبيد عن الحسن ، أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ، ويقيم بها قراءته ، فقال : حسن ،

فتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها ، فيهلك فيها .

الثالث : التصريف ، لأن به تعرف الأبنية والصيغ ، قال ابن فارس ومن فاته فاته علمه المعظم .

الرابع : الاشتقاق ، لأن الإسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما ، كالمسيح ، هل هو من السياحة أو المسح .

الخامس والسادس والسابع : المعانى والبيان والبديع ، لأنه يعرف بالأول خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ، وبالثانى خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلاله وخفائها ، وبالثالث وجوه تحسين الكلام ، وهذه العلوم الثلاثة هى علوم البلاغة ،وهى من أعظم أركان المفسر ، لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز ، وإنما يدرك بهذه العلوم .

الثامن : علم القراءات ، لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

التاسع : أصول الدين بما فى القرآن من الآيات الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى ، فالأصولى يؤول ذلك ، ويستدل على ما يستحيل وما يجب وما يجوز .

العاشر : أصول الفقه ، إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط .

الحادى عشر : أسباب النزول والقصص ، إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه .

الثانى عشر : الناسخ والمنسوخ ليعلم المحكم من غيره .

الثالث عشر : الفقـه .

الرابع عشر : الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .

الخامس عشر : علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث : من عمل بما علم ورثة الله علم ما لم يعلم . قال ابن أبي الدنيا : وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له . قال : فهذه العلوم - التى هى كالآلة للمفسر - لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها ، فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه .

قال : والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأُخرى من النبى صلى الله عليه وسلم .

قال : فى البرهان : اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا يظهر له أسراره وفى قلبه بدعة أو كبر أو هوى أوحب الدنيا ، أو وهو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله ، وهـذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض .

فى طبقات المفسرين

تفسير الصحابة :

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبدالله بن الزبير .

أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب ، والرواية

عن الثلاثة نزرة جداً ، وكأن السبب فى ذلك تقدم وفاتهم ، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه للحديث ، ولا احفظ عن أبى بكر رضى الله الله عنه فى التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة ، وأما على فروى عنه الكثير ، وقد روى معمر عن وهب بن عبدالله عن أبى الطفيل ، قال : شهدت عليا يخطب ، وهو يقول : سلونى فوالله لا تسألوننى عن شىء إلا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم :أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق أبى بكر بن عياش ، عن نصير ابن سليمان الأحمسى ، عن أبيه ، عن على، قال : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت . وأين أنزلت ، إن ربى وهب لى قلباً عقولا ، ولساناً سئولا .

وأما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن على ، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته .

وأخرج أبو نعيم عن أبى البخترى ، قال : قالوا لعلى : أخبرنا عن ابن مسعود، قال : علم القرآن والسنة ، ثم انتهى، وكفى بذلك علماً .

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن الذى دعا له النبى صلى الله عليه وسلم اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . وقال له أيضاً : اللهم آته الحكمة .

وفى رواية : اللهم علمه الحكمة .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عباس ، فقال : اللهم بارك فيه وأنشر منه .

وأخرج من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة ، عن ابن عباس قال : انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل فقال ، له جبريل : إنه كائن حبر هذه الأمة ، فاستوص به خيراً .

وأخرج من طريق عبدالله بن حراش ، عن العوام بن حوشب ، عن مجاهد قال : قال ابن عباس : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ترجمان القرآن أنت .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود ، قال : نعم ترجمان القرآن عبدالله ابن عباس .

وأخرج أبو نعيم عن مجاهد ، قال : كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه .

وأخرج عن ابن الحنفية ، قال : كان ابن عباس حبر هذه الأمة .

وأخرج عن الحسن ، قال : إن ابن عباس كان من القرآن بمنزل ، كان عمر يقول : ذاكم فتى الكهول ، إن له لساناً سئولا ، وقلبا عقولا .

وأخرج البخارى من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ، وإن لنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه ممن علمتم . فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم . فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم - فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : [إذا جاء

نصر الله والفتح] ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً ، فقال لى أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له فقال:[إذا جاء نصر اللهوالفتح] ، فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول . .

طبقـــة التابعين :

قال ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد وعطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم . وكذلك فى الكوفة أصحاب ابن مسعود ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير ، مثل زيد بن أسام الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس . انتهى .

فمن المبرزين منهم مجاهد ، قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة .

وعنه أيضاً قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عندكل آية منه ، وأسأله عنها فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟

وقال خصيف : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد .

وقال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

قال ابن تيمية : ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم .

قال السيوطى : وغالب ما أورده الفريابى فى تفسيره عنه ، وما أورده فيه عن ابن عباس أو غيره قليل جداً .

ومنهم سعيد بن جبير ، قال سفيان الثورى : خذوا التفسير عن أربعة : عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك .

وقال قتادة : كان أعلم التابعين أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير ، وكان عكرمة أعلمهم بالسير ، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام .

ومنهم عكرمة مولى ابن عباس ، قال الشعبى : مابقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ، وقال سماك بن حرب : سمعت عكرمة يقول : لقد فسرت ما بين اللوحين .

ومنهم الحسن البصرى ، وعطاء ابن أبى رباح ، وعطاء بن أبى سلمة الخراسانى ومحمد بن كعب القرظى ، وأبو العالية ، والضحاك بن مزاحم وعطية العوفى ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، ومرة الهمدانى ، وأبو مالك ، ويليهم الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى آخرين .

فهؤلاء قدماء المفسرين ، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة .

ثم بعد هذه الطبقة ألفت ، تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان ابن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وسنيد ، وأبى بكر بن أبى شيبة وآخرين .

وبعدهم ابن جرير الطبرى ، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ثم ابن أبى حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حيان وابن المنذر فى آخرين ، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح

بعضها على بعض والاعراب والاستنباط ، فهو يفوقها بذلك .

ثم ألف فى التفسير خلائق ، فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال بتراء ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من ينسخ له قول يورده ، ومن يحطر بباله شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ، ظاناً أن له أصلا ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ، ومن يرجع إليهم فى التفسير .

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا فى علوم ، فكان كل منهم يقتصر فى تفسيره على الفن الذى يغلب عليه ، فالنحوى تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه ، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته ، كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر والنهر .

والإخبارى ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والأخبار عمن سلف ، سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبى .

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبى .

وصاحب العلوم العقلية . خصوصاً الإمام فخر الدين - قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها ، وخرج من شيء إلى شيء ، حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية ، قال أبو حيان فى البحر : جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير .

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد ، بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه . قال البقلينى : استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش من قوله تعالى فى تفسير [فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز] وأى فوز أعظم من دخول الجنة ، أشار به إلى عدم الرؤية .

قال السيوطى : فإن قلت : فأى التفاسير ترشد إليه ، وتأمر الناظر أن يعول عليه . قلت : تفسير الإمام أبى جعفر بن جرير الطبرى الذى أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله .

قال النورى فى تهذيبه : كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله .

وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة والاستنباطات والإشارات والأعاريب واللغات ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلا ؛ وسميته بـ« مجمع البحرين ومطلع البدرين » ؟

تم الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه

خاتمه وتعريف

الإتقان فى علوم القرآن لمؤلفه شيخ الإسلام أبو الفضل الإمام جلال الدين السيوطى – كتاب اشتهر كمؤلفه – بين علماء المسلمين شهرة الشمس فى الآفاق وشهرة القرآن بين العالمين ، إذ جمع فيه مؤلفه – رحمه الله – شتات العلوم والمعارف التى تتعلق بالقرآن تفسيراً وقراءات ونواسخ ولغة وأحكاماً وعقيدة وسنة وفوائد ومعارف لا يمكن حصرها فى هذه العجالة ولكنها تصل بدارسها إلى درجة الإتقان لعلوم القرآن الذى هو أصل كل الأصول فى الإسلام ، أو كما يقول السيوطى فى مقدمته : « وعلومه (أى القرآن) شاملة ، فأردت أن أذكر فى هذا التصنيف ما وصل إليه علمى مما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف . . . »

إلا أن سعى المؤلف إلى الاستقصاء والإحاطة بكل علم الزم نفسه بعرضه وكل سند أورده – جعل هذا الكنز محدود الانتشار خارج دائرة العلماء والباحثين فى هذه العلوم ، وإن كان طلبها فريضة كفائية على كل قادر من المسلمين .

وقد أدرك حاجة المسلمين وطلاب علوم القرآن إلى الانتفاع بهذا الكنز الثمين – عالم أصيل من كرام علماء مكة هو فضيلة الأخ الدكتور محمد علوى المالكى بن علامة الحجاز ومدرس الحرم الشريف فضيلة الشيخ علوى المالكى رحمه الله – فاستخلص جواهر الإتقان بأسلوب التزم فيه الصفاء والأمانة والسهولة والإتقان ، وقد طابقناه على أصله فوجدناه قد أوفى على المراد ، وزاد تلك (**الزبدة**) تبسيطاً ييسر الإلمام بهذه العلوم الغالية لكل مسلم ولكل شاب يتوق إلى معرفة كتاب الله العزيز .

فجزى الله عالم شبابنا السيد محمد علوى المالكى عن الإسلام خيرا بما بذله ويبذله من تآليف نافعة يقصد بها رضوان الله ؟

ابراهيم محمد البطاوى

منشيء دار الإنسان

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة المؤلف	٢
أول ما نزل من القرآن	٣
أوائل مخصوصة	٥
آخر ما نزل من القرآن	٥
معرفة سبب النزول	٧
هل للسبب تأثير فى تحديد الحكم	٨
فوائد تتعلق بأسباب النزول	١٠
مصادر أسباب النزول	١٠
ما معنى قول الصحابة هذه الآية نزلت فى كذا . . الخ	١٠
آية واحدة وأسباب متعددة	١١
آيات متفرقة والسبب واحد	١٢
ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة	١٢
ما تكرر نزوله	١٣
فى معرفة حفاظه ورواته	١٣
معرفة المتواتر والمشهور والآحاد والشاذ والموضوع والمدرج ...	٢٠
أوجه التحمل	٢٥
فصل فى كيفية الأخذ بإفراد القراءات وجمعها	٢٧
قاعدة	٢٩
قاعدة ثانية	٢٩
عادات السلف فى قدر القراءة	٣٠
القراءة فى المصحف	٣٩
فصل فى الاقتباس وما جرى مجراه	٤٤
ما وقع فيه بغير لغة العرب	٤٦

الموضوع	الصفحة
قاعدة	٤٨
قاعدة	٤٩
قاعدة	٤٩
قاعدة أخرى تتعلق بالتعريف والتنكير	٥٢
تنبيه	٥٣
قاعدة فى الإفراد والجمع	٥٥
قاعدة فى السؤال والجواب	٥٧
فى معرفة الوجوه والنظائر	٥٨
فوائد	٦٢
معرفة إعرابه	٦٥
تنبيهات	٦٨
فائدة	٧٠
فى قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها	٧٠
قاعدة الضمائر	٧٠
مرجع الضمير	٧٢
المحكم والمتشابه	٧٣
فصل	٧٥
فصل	٧٧
فى مقدمه ومؤخره	٧٩
فى عامه وخاصه	٨٤
فصل	٨٦
فروع منثورة تتعلق بالعموم والخصوص	٨٧
فى مجمله ومبينه	٨٩
فى ناسخه ومنسوخه	٩٠
فوائد منثورة	٩٥
تنبيه	٩٦

الموضـــوع	الصفحة
فى مشكله وموهم الاختلاف والتناقض	٩٦
فى مطلقه ومقيـــده	١٠٠
فى منطوقه ومفهومه	١٠٢
فى وجوه مخاطباته	١٠٣
فـــائدة	١٠٦
فى حقيقته ومجازه	١٠٦
أقسام المجـــاز	١٠٦
فى الخبر والإنشاء	١١٠
فصـــل	١١١
فصل من أقسام الإنشاء والأمر	١١٤
فصل ومن أقسامه النهى	١١٥
فى فواتح السور	١١٦
فى خواتم السور	١١٧
فى مناسبة الآيات والسور	١١٩
تنبيـــه	١٢٠
فى إعجاز القـــرآن	١٢٢
فصل : وجه إعجازه	١٢٤
تنبيهـــات	١٢٥
عناية العلماء بالعلوم المستنبطة	١٢٦
فى أمثال القرآن	١٣٤
فصـــل	١٣٥
فـــائدة	١٣٨
فى أقسام القرآن	١٣٨
فى جـــدل القرآن	١٤١
فيما وقع فى القرآن من الأسماء والكنى والألقـــاب	١٤٤
أسماء الملائكة	١٤٤

الموضـــوع	الصفحة
أسماء الصحابة وغيرهم	١٤٤
فـــوائد	١٤٦
فوائد مختلفة	١٤٨
فى ذكر آيات المبهمات	١٤٩
فى المبهمـــات	١٥١
أسباب الإبهام فى القرآن	١٥١
فى معرفة تفسير القرآن	١٥٢
فى معرفة تفسير القرآن وتأويله وبيان الحاجة إليه	١٥٢
أمهات مآخذ التفسير	١٥٤
فى طبقات المفسرين	١٥٨
تفسير الصحابة	١٥٨
طبقة التابعين	١٦١
خاتمة وتعريف	١٦٥